إلى القرآن الكريم

للإمام الأكبر
محمود شلتوت

دار الشروق

مقاصد القرآن

لقرآن الكريم : آخر كتاب أنزله الله هداية للناس أجمعين : «كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد » ، وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون » ، « ان هذا القرآن يهدى للتى هى اقوم ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن اهم أجرا كبيرا » .

ومن هنا كان العمل على ما يقرب للناس معناه ، ويفتح لهم بابه التفقه فيه ، من أهم ما يجب على القادة والمرشدين . .

وقد رأينا أن نقدم هـــذه الطريقة التى ترسم الخطوط الاولى للموضوعات التى يتضمنها الربع من القرآن حتى تصبح مقاصده بارزة ومسالك فهمه واضحة ، فتأخذ مكانها من القلب ، وتتجه النفس الى التوسع فى التفقه والمعرفة . وسنبدأ ــ ان شاء الله ــ من أول القرآن ، بحديث نجمل فيه مقاصد القرآن جملة ونشير الى أساليبه التى اتخذها سبيلا للدعوة اليها .

❋ ❋ ❋

ونرجو أن يكون هذا بمثابة منار يهدى الى معرفة ما هو من مهمة القرآن فيطلب منه ، وما ليس من مهمته فلا ننتظره منه ، ولا نكره آياته عليه . .

وان نظرة فى القرآن الكريم فى مثل قوله تعالى : « ان هذا القـــرآن يهدى للتى هى اقوم ، ويبشر المؤمنين الذين يعمـــلون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا » لترينا ان مقاصد القرآن تدور حول نواح ثلاث : ناحية العقيدة ، وناحية الأخلاق ، وناحية الأحكام .

فالعقائد : تطهر القلب من بذور الشرك والوثنية ، وتربطه بمبدأ الروحية الصافية ، وهى تشمل ما يجب الايمان به فى جانب الله من صفات الجلال والكمال ، وما يجب الايمان به فى جانب الوحى

والرسالات من الملائكة والكتب والنبيين ، وما يجب الايمان به فى حالات اليوم الآخر من البعث والجزاء ..

* * *

والأخلاق : تهذب النفس وتزكيها ، وترفع من شأن الفرد والجماعة ، وتقوى عرى التآخى والتعاون بين بنى الانسان ، وتشمل : الصدق ، والصبر ، والوفاء بالعهد ، والحلم ، والجود ، والرحمة ، وغيرها مما يحقق فى الانسان ثمرة ايمانه بالله وصفاته التى يجب أن يكون عليها عباده .

* * *

أما الأحكام : فهى ما بينه الله فى كتابه ، أو بين أصوله من النظم التى يجب اتباعها ، فى تنظيم علاقة الانسان بربه ، وعلاقته بأخيه الانسان ، وتشمل : أحكام الصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ، واليمين ، والنذر ، وما الى ذلك مما يدخل فى دائرة العبادات التى تغذى الايمان ، وتنمى ثمراته الطيبة . وتشمل : أحكام الزواج ، والطلاق ، وما يتبعهما من مهر ونفقة ، ورضاعة ونسب ، وعدة ، ووصية ، وارث ، وما الى ذلك مما يدخل فى دائرة الاحوال الشخصية ، أو أحكام الأسرة . وتشمل : أحكام البيع ، والاجارة ، والرهن ، والمداينة ، وما الى ذلك مما يدخل فى دائرة المعاملات المالية . وتشمل : أحكام الجنايات ، والجرائم ، كالقتل ، والسرقة ، والافساد فى الأرض ، والزنا ، والقذف ، وما الى ذلك مما يدخل فى دائرة العقوبات ، وتشمل : أحكام الحرب والسلم وما يتبعهما من غنائم وأسرى ، ومعاهدات ، وما الى ذلك مما يدخل فى دائرة الأحكام الدولية العامة .

مصادر التشريع الاسلامى

وقد عرض بعد هذا كله لمصادر التشريع ، وبين أنها الكتاب والسنة ، واجتهاد أولى الراى ، ارباب العلم بالمصلحة فى نواحى الحيـــاة .

كما عرض لأساس الحكومة فى الاسلام وهى الشورى ، وجعلها من أخص أوصاف المؤمنين .

أساليب الدعوة

هذه هى الخطوط الأصلية لمقاصد القرآن الكريم .. أما الأساليب التى اتخذها سبيلا للدعوة الى تلك المقاصد فهى :

أولا : الارشاد الى النظر والتدبر فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء ، لتعرف أسرار الله فى كونه ، وابداعه فى خلقه ، وبذلك تمتلئ القلوب ايمانا بوجوده وعظمته عن نظر واقتناع لا عن تقليد وابتداع . وبهذا السبيل كرم الله العقل ، وفتح له باب البحث عن خواص الأجسام وأسرار الكائنات فى الأرض ، والسماء ، والماء ، والهواء ، كى ينتفع بها فى حياته ، ويستخدمها فى التعمير والانشاء .

* * *

ثانيا : قصص الأولين ، أفرادا وأمما ، الصالحين منهم والمفسدين ، وقد أورد القرآن فى ذلك كثيرا مما يثير العظة والاعتبار ، ويرشد الى سنن الله فى معاملة عباده ، وهذا هو مقصد القرآن من ذكر قصص الماضين .. فلم يذكره على أنه تاريخ يحدد الزمان والمكان والأشخاص ، ويرتب الوقائع ويبين الأسباب والنتائج ، ولم يذكره على أنه أساطير تتحدث عن الغرائب والأعاجيب التى يسمر بها الناس فى النوادى والمجتمعات .

* * *

ثالثا : ايقاظ الشعور الباطنى فى الانسان فيندفع الانسان بوحى هذا الشعور الى التساؤل عن مبدئه ، وعن مادته وعن حياته ، وعن مآله ومصيره ، حتى يصل الى الاعتراف بخالق القوى والقدر ، واضع الأسباب والمسببات ، رب الأرض والسموات ، مدبر الأمر ومصرفه ، وتلك هى الفطرة التى ذكرها الله بقوله تعالى : « فطرة الله التى فطر الناس عليها » .

* * *

رابعا : أما الأسلوب الرابع الذى اتخذه القرآن فى الدعوة الى مقاصده ، فهو : أسلوب الانذار والتبشير ، أو الوعد والوعيد ، وللقرآن فى ذلك طريقان :

أحدهما : الوعد والوعيد عن طريق الحياة الدنيا : يعد المؤمنين الصالحين بعموم السلطان والتمكين فى الأرض ، وينذر الجاحدين المفسدين بتقلص العز وانتزاع الملك ، وتسليط الأعداء .

وثانيهما : الترغيب بنعيم الآخرة الدائم الذى لا ينقطع ، الصافى الذى لا يشوبه كدر . والترهيب من الكفر والافساد فى الأرض والطغيان على عباد الله بعذابها الدائم المهين .

* * *

هذه مقاصد القرآن الكريم ، وتلك أساليبه فى الدعوة ..

فعلينا أن نتجه الى القرآن فنرتل آياته ، أو نسمعها ، ونستخلص أحكامه ، ونعرف أغراضه .. وعسى أن نجد فى هذا ما يقرب لنا الأمر ، ويسهل علينا التفقه بالقرآن ، فنعمل به فى خاصة أنفسنا ، وأهلينا ، ومواطنينا ، وبذلك نحصل على رضاء الله واسعاده فى الدنيا والآخرة ..

« والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة انا لا نضيع أجر المصلحين » .

محمود شلتوت

سورة الفاتحة

سورة الفاتحة ، وتسمى ام الكتاب ، هى احدى سور خمس فى القرآن الكريم بدئت باثبات الحمد لله(١) .

(*) وقد اجملت الفاتحة كل ما فصل فى القرآن الكريم من اثبات التوحيد والبعث ، وبيان الطريق المستقيم الذى يسلكه الانسان فى تنظيم حياته مع ربه ومع نفسه ، ومع الناس : فالجملتان : الحمدلله رب العالمين » ، « الرحمن الرحيم » تثبتان توحيد الله فى الخلق والتربية عن طريق الرحمة الواصل اثرها الى عباده . والجمله الثالثة : « مالك يوم الدين » تثبت النشأة الآخرة التى يقع فيها الجزاء على الاعمال . والجملتان « اياك نعبد ، واياك نستعين » تقرران مبدا عبادة الله وحده ومبدا عجز الانسان واحتياجه الى معونة ربه ، وتقطعان عليه سبيل التوجه لغير الله بالعبادة والاستعانة .

وجملة «اهدنا الصراط المستقيم» توجه الانسان الى طلب الأحكام التى ينظم بها شأنه من الله سبحانه وتعالى فهو المعلم ، وهو المشرع ، وهو الموفق للعمل بما يعلم وبما يشرع .

الناس أمام شرع الله

وجملة « صراط الذين أنعمت عليهم » ترشد الى أن الناس أمام شرع الله وطريقه فرق ثلاثة : فريق عرفوا بالتزام الصراط المستقيم حتى أضيف اليهم ، وعرف بهم ، وكانوا فيه قدوة لغيرهم ، وهم « المنعم عليهم » وفريق جحدوا صراط الله واحكامه عنادا واستكبارا وهم « المغضوب عليهم » ، وفريق متردد بين الظهور بالايمان وبين استبطان الكفر وهم « الضالون » .

* * *

---

(١) وهى : الفاتحة . الانعام . الكهف — سبأ — فاطر

(*) فى تفسير الاجزاء العشرة الأولى للقرآن الكريم — راجع كتابنا : تفسير القرآن الكريم الجزء الأول .

وبذلك استوفت سورة الفاتحة العقيدة فى المبدأ والمعاد ، وبها كمال الانسان من الجانب العلمى ، واستوفت طريق العمل الصالح، وبه كمال الانسان من الجانب العملى ، وأشارت الى تاريخ البشرية الفاضلة فى التزام الحق علما وعملا ، والى تاريخ البشرية الفاسقة فى التنكب عن العلم والعمل ، وهذا اجمال كل ما فصل فى القرآن الكريم ، ومن هنا كانت الفاتحة مقدمة الكتاب ، وام الكتاب .

ســــورة البقــرة

الربع الأول :

(*) سورة البقرة هى أطول سورة فى القرآن ، وأول سورة مدنية فيه ، وقد اشتملت على بيان طوائف الناس بالنسبة للانتفاع بالقرآن وعدم الانتفاع به ، وتوجيه الخطاب الى الناس عامة بعناصر الدين ، والتنبيه الى بعض أدلة التوحيد فى النفس والآفاق ، والتذكير بمكانة الانسان التى أعد لها فى هذه الحياة .

طوائف الناس أمام القرآن

بدأت السورة فنوهت بشأن القرآن الكريم ، وأنه حق لا ريب فيه ، وأن الذين ينتفعون به انما هم « المتقون » الذين سلمت فطرهم من تسلط المادة المظلمة ، والعصبية الغاشمة ، فآمنوا بالله واليوم الآخر ، وعرفوا حق الله فأقاموا الصلاة ، وحق عباده فأنفقوا فى سبيله « ومما رزقناهم ينفقون » وعرفوا أن رسالته فى جميع الأزمان واحدة ، فآمنوا بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، وما أنزل من قبل : « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » .

ثم تقابل هؤلاء بطائفة ثانية تبجحت بالعناد ، وتحكمت فيهم النشأة الضالة ، حتى انسدت عليهم طرق الهداية وصاروا لا يرجى منهم خير ولا ايمان ، وهؤلاء هم الذين أيأس الله من ايمانهم نبيه ، وقال فيهم : « سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ، ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم » .

ثم ذكرت السورة طائفة ثالثة ، هى شر ما ابتلى به الحق وأهله فى هذه الحياة وهم المنافقون ! .. أنكرت قلوبهم كالكافرين ،

(*) يشتمل القرآن على ثلاثين جزءا . وكل جزء يحتوى على أرباع والربع هنا من أول سورة البقرة الى نهاية الآية ٢٥ .

ونافقوا ، وقابلوا المؤمنين بوجه والكافرين بوجه . وقد تحدث الله عنهم فى الربع الأول بثلاث عشرة آية ، أظهر دخيلتهم واغراضهم ، ومرض قلوبهم ، وذبذبتهم بين هؤلاء وهؤلاء : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » . ثم زادهم توضيحا فضرب لحيرتهم مثلين : مثل من اضاءت حوله النار ثم انطفأت عليه ، وتركته فى ظلمة لا يهتدى فيها الى صواب .. ومثل من أخذته السماء ، بمطرها وظلمتها ورعدها وبرقها ، فأخذ يتحين الخلاص مضطربا فى شأنه ، خائفا من الهلاك ، ولو شاء الله لذهب بسمعه وبصره ، ان الله على كل شيء قدير .

وأخيرا يوجه الخطاب الى الناس عامة ، فيطلب منهم عبادة الله وتوحيده ، والايمان برسالة محمد ، ويقرر الجزاء ، وفى سبيل ذلك يلفت نظرهم الى نعمته عليهم بالتربية والخلق ، وبتسخير الأرض ومنافعها ، والسماء ومائها فى الحصول على الرزق والثمرات ، ويتحداهم أن يأتوا بمثل القرآن وهم أهل الكلام ، ثم يحذرهم — ان لم يفعلوا ولن يفعلوا — النار التى وقودها الناس والحجارة .

وهنا يأتى الأمر بتبشير المؤمنين بأن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، جمعت لذائذ المادة والروح ، وهم فيها خالدون .

الربع الثانى :

ضرب الأمثال فى القرآن

(*) من سنة الله فى القرآن أن يستخدم فى البيان ضرب الأمثال تقريبا لما يجب أن تنفعل به النفوس ، وتؤمن به القلوب .. فضرب مثلين للمنافقين وضرب الشجرة الطيبة مثلا للكلمة الطيبة .. وضرب الذبابة والعنكبوت مثلا للشفعاء والأولياء الذين اتخذهم المشركون معبودات ليقربوهم الى الله .

وقد جاء هذا الربع يقرر أن الله لا يمتنع من ضرب الأمثال بما يوضح ويبين ، دون نظر الى قيمة الممثل به فى ذاته أو عند الناس : « ان الله لا يستحى ان يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها » .

(*) من الآية ٢٦ الى نهاية الآية ٤٢ من سورة البقرة .

أما الناس فهم أمام هذه الأمثال فريقان : فريق يفهم القصد الذى ترمى اليه ، ويكون لها أثرها الحسن فى نفوسهم .. وفريق يتعلق باسم الحيوان الذى ضرب به المثل ، ولا ينظر الى المعنى المقصود ، فيتساءل متعجبا ، مستهزئا ، منكرا ، ماذا أراد الله بهذا مثلا ؟ ! .. ويتخذ ذلك سبيلا لايقاع الشك فى قلوب الناس ، وهذا شأن الفاسقين الذين خرجوا بأنفسهم عن هداية الله فى خلقه ، وأساليب البيان التى طبع عليها كل لسان ، هؤلاء الذين كان من خروجهم عن هداية الله ، نقض عهد التوحيد والهداية ، وقطع ما أمر الله به أن يوصل من رسالته المتتابعة ، والافساد فى الأرض ، يسجل الله عليهم الخسران فيقول : « أولئك هم الخاسرون » . ثم يتعجب من كفرهم واستمرارهم على هذا الفسوق مع وضوح دلائل التوحيد والايمان فى انفسهم : « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ، ثم يميتكم ثم يحييكم ، ثم اليه ترجعون » ، وفى الآفاق : « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شىء عليم » .

الحكمة فى خلق الانسان

ثم يذكر الناس بما اقتضته حكمته فى خلق النوع الانسانى ، مزودا بقوى العقل والادراك ، وقوى العمل فى هذه الحياة : « واذا قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة » .. ثم بما كان من الملائكة فى الاستفسار عن الحكمة فى خلق هذا النوع ، وهو — على ما يعلمون — ذو شهوة وغضب ، بهما يفسد فى الأرض ، ويسفك الدماء . وعندئذ صور لهم قدرة الانسان — بما ركب فيه — على معرفة خصائص الأشياء ، وطلب منهم الاخبار بها ، فظهر عجزهم عما يقدر عليه الانسان ، فعلموا انهم لا يستطيعون الخلافة فى الأرض والتى اختير لها ذلك النـوع القدير على معرفة هـذه الخصـائص والانتفاع بها ، فآمنوا بحكمة الله ، وانقادوا لأمره سبحانه فى تعظيم آدم وسجدوا كما أمروا : « واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى واستكبر » . نفس شريرة ، عتت عن أمر ربها ، وكانت من الكافرين ، ومنح الله آدم منزلة التكريم ، وجعل له زوجا من نفسه يسكن اليها ، ومكنهما من متعة المادة ، بعد متعة المودة ، ثم اختبرهما — لحكمته البالغة — بالنهى

عن الأكل من شجرة معينة ، ولكن الشيطان الذى ابى أن يسجد وقف لآدم بالمرصاد، ومازال يغريه وزوجه حتى زلا ووقعا فى المخالفة ، وعندئذ أنزلا حيث التكليف ، وحيث العمل ، وحيث المنازعات والمنافسات: «وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى حين » . وعندئذ أدرك آدم خطيئته ، فتلقى من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم ، وقرر له ولذريته نظام حياتهم ، وطرق سعادتهم وشقائهم : « فاما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

حاجة الانسـان الى الوحى

وعبرتنا من هذه القصة ، ان الله خلق الانسان وجعله مستعدا للعلم والانتفاع بما خلق الله فى الكون ليكون خليفة فى الأرض ، يعمرها وينميها ، ويكون بعمله مظهرا لرحمة الله بعباده . وليخلق فيه روح المكافحة ، خلقه مستعدا ايضا للتأثر بداعية الخير ، وداعية الشر ، وبين له ان عاقبة التأثر بداعية الخير السعادة المطلقة ، وعاقبة التأثر بداعية الشر الشقاء المطلق . وبذلك كان الانسان فى حاجة الى الوحى الالهى يقيه ويحفظه من دواعى الشر ، وعلى هذا المبدأ أرسل اليه الرسل ، وأنزل الكتب تذكيرا بما يسعده ، وتنفيرا مما يشقيه ، فيجب علينا أن نتعرف أنفسنا بغرائزها . وان نحصنها بهداية الله من كيد الشيطان ، وان نلتزم ارشاد الله وأحكامه حتى نفوز برضاه ، ونحصل على اسعاده .

دعـوة الرسـول

سـورة البقرة نزلت بعـد ان هاجر المسلمون الى المدينة ، وصارت لهم بالهجرة وحدة خاصة ، وجوار ممن أوتوا الكتاب من قبل . . وقد كان من المرتقب أن يلبى هذا الجوار الجديد دعوة النبى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل ، وكانوا يطلبون به قبل مجيئه النصرة على أعدائهم ، ولكن خاب الفأل وضاع المرتقب ، وحملهم الحسد والبغى على الاعراض والتكذيب والانكار ، فتحدثت السورة عنهم فى أربع وثمانين آية ، بدأها الله وختمها بندائهم ونسبتهم الى ابيهم ، يستحثهم على الايمان ، ويذكرهم

بنعمته عليهم : « يابنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم واياى فارهبون ، وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ، ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا واياى فاتقون ، ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون ، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين » .

الربع الثالث :

انحراف رؤساء بنى اسرائيل

(*) ثم بدأ يبكت الرؤساء — الذين يتلون الكتاب ، ونصبوا أنفسهم لتعليم الناس أحكامه — على أنهم يتركون أنفسهم للشهوات والأهواء دون تزكية ولا تطهير مع أنهم فى الوقت نفسه يأمرون الناس بالبر والخير ، ويحكمون لهم بالهدى والايمان ، أو يحكمون عليهم بالضلال والكفر ، ويرشدهم الى الطريق الذى يقودهم الى الخير فى أنفسهم وفى جماعتهم « واستعينوا بالصبر والصلاة وانها لكبيرة الا على الخاشعين ، الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم اليه راجعون » .

ثم يعود فيذكرهم مرة اخرى بالنعم التى أنعم بها عليهم فى شخص أسلافهم ويحذرهم يوم العدل والقصاص : « واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ، ولا يؤخذ منها عدل ، ولا هم ينصرون » .

تذكيرهم بنعم الله

ثم يأخذ بهم الى الماضى فيذكرهم بتنجية أسلافهم من فرعون ، وقد كان يذيقهم سوء العذاب ، يذبح أبناءهم ويترك نساءهم ، ويذكرهم بأن انجاءهم كان بأسلوب الهى لا قدرة للانسان عليه ، ولا سبيل له فى الاهتداء اليه : كأن يفلق البحر وتهيئة طريق لهم فيه حتى اذا ما جاوزوا البحر ونجا جميعهم ، وأتبعهم فرعون وجنوده ، أطبق البحر على فرعون وقومه وغشيهم من اليم ماغشيهم ، واضل فرعون قومه وما هدى : « وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون » . نعمة مزدوجة ، فضل وقدرة ، أنجاهم وأهلك عدوهم .

(*) من الآية ٤٤ الى نهاية الآية ٥٩ من سورة البقرة .

ويذكرهم بعفوه عنهم حينما عبـــدوا العجل فى غيبة موسى ، ويذكرهم بنعمة انزال التوراة التى بها يعرفون الحلال والحرام ، ويفرقون بين الحق والباطل . ويذكرهم بعلاجهم من اثر الصاعقة التى أخذتهم حينما تمردوا ، وقالوا لموسى : لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة : « ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون » .

ويذكرهم بنعمته عليهم حينما جبنوا عن دخول الأرض المقدسة ، وقالوا : « أن فيها قوما جبارين » ، فقضى عليهم بالبقاء فى الصحراء ، تائهين اربعين سنة ، تأديبا واعدادا لذرية صالحة منهم . يذكرهم وهم فى ذلك التأديب بنعمة تظليلهم بالغمام ، يقيهم وهج الشمس، وشدة البرد ، ونعمة انزال المن والسلوى ، ابقاء لهم ، ورحمة بهم : « كلوا من طيبات ما رزقناكم » .

ويذكرهم بما كان منهم بعد أن خرجوا من التيه ، وبعد أن رأوا نعمة الله عليهم غيه : ذكرهم بتمكينه اياهم من دخول الأرض المقدسة ، والتمتع بخيراتها ، ويأمرهم بالشكر على النعم ، وتقدير الفضل والرحمة ، والاعتراف بالذنب . ولكنهم مع هذا كله يبدلون قولا غير الذى قيل لهم : يستمرئون العصيان ، وينغمسون فى الطغيان ، فينزل عليهم العذاب : « رجزا من السماء بما كانوا يفسقون » وهكذا سنة الله فيمن يكفر بنعمه فلا يستمع لواجب الشكر ، ولا يقوم بحق العبودية ، وينزل فى أفعاله وسلوكه على حكم الشهوة والهوى .

الربع الرابع :

نزق وطغيـــان

(*) والحديث فيه لايزال مع بنى اسرائيل ، يذكرهم بالنعم على أسلافهم فضلا ورحمة وبالنقم عظة وتأديبا : أقاموا فى صحراء التيه وانقطع عنهم الماء ، فطلب لهم موسى السقيا من ربه ، فيأمره أنْ يضرب الحجر بعصاه ، فتتفجر منه عيون الماء ، فيأكلون ويشربون ، ويأخذ الله عليهم العهد بأن لا يفسدوا فى الأرض .

(*) من الآية ٦٠ الى نهاية الآية ٧٤ من سورة البقرة .

يذكرهم الله بهذه النعمة ، ويذكرهم بتمردهم فى طلب الماديات ، كما تمردوا بطلب رؤية الله من قبل : « لن نصبر على طعام واحد » . نزق وطغيان فهم يعلمون أنهم فى صحراء لا ماء ولا زرع ، ولا تنبت شيئا مما يطلبون ، ولكنه العناد والتمرد ، يذهب بصاحبه فى الضلال كل مذهب ، ويطلب به الأدنى بدل الأعلى : « أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ؟ » ، ومع هذا فلكم ما سألتم : اخرجوا من التيه وادخلوا مصرا ، تنبت لكم أرضها ما طلبتم ، وقوموا بحق الله ، واستمعوا لأنبيائه . ولكنهم يصرون على طريقتهم ، ويقتلون النبيين بغير الحق ، ويعصون أوامر الله ، ويعتدون على الحقوق والحرمات ، ولا يزالون كذلك حتى يضرب الله عليهم الذلة والمسكنة ، ويبوءوا بغضبه ونكاله « ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » .

ايمـــان وعمـــل

وبعد ذلك ترشد الآيات الى أن أساس النجاح والخسران ليس فى النسبة الى رسول ما ، دون الأخذ بأحكامه وارشاداته ، وانما هو فى صدق الايمان بالله واليوم الآخر ، والعمل الصالح ، فمن يؤمن بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر ، ويعمل صالحا « فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . وفى هذا ارشاد الى أن القيم الرفيعة لا تحفظ عند الله بالأحساب ، ولا بالأنساب ، وانما تحفظ بمعان فاضلة تملأ القلب وتظهر آثارها الطيبة فى الحياة .

عود الى التذكير بالنعم

ثم تعود الآيات الى تعداد النعم ، فتذكرهم بأخذ الميثاق عليهم أن يعملوا بالتوراة وأن يأخذوا أحكامها بقوة ، وأن يتجهوا الى اصلاح أنفسهم بها لعلهم يتقون . .

وتذكرهم بآية من آيات الله ، كان جديرا بهم ان يعتبروا بها ، وأن يعلموا أن القادر عليها قادر على أن يقلبها عليهم ، فيصبحوا بها جاثمين ، ولكنهم ظلوا بعدها على شأنهم فى العناد والمكابرة ، ومع هذا فقد امتدت اليهم رحمة الله ، وعاملهم بفضله واحسانه ، ولم يشأ ان يأخذهم بآياته : « فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم

من الخاسرين » . ثم تذكرهم بما كان من بعض أسلافهم حينما أمرهم الله أن يتفرغوا فى يوم السبت لعبادته فعصوا ، محتالين بطريقة عجيبة وهى أن يحجزوا السمك يوم السبت فى حظائر ويتركوه فيها ليأخذوه فى اليوم الذى بعده ، فضرب الله عليهم الخزى وسلبهم خصائص الانسانية الفاضلة ، وملأ قلوبهم بالطمع والشره ، شأن القردة ، وكانت تلك عقوبة ظاهرة فيهم ، وفى أسلافهم من بعد : « ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين ، فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين »

ثم تذكرهم الآيات بموقف من مواقف العناد التى وقفها آباؤهم من قبل ، وكانت سببا فى التشديد عليهم : تقع فيما بينهم حادثة قتل لا يعرف فيها القاتل ، ويختلفون على أنفسهم فيه ، فيلتجئون الى موسى ويطالبونه بمعرفته ، فيأمرهم بناء على ارشاد ربه ان يذبحوا بقرة ، فيقابلوا الأمر بالاستهزاء ويسألون عنها : فى سنها ، فى لونها ، فى شأنها كله ، حتى ضيقوا على أنفسهم ، ولم يعثروا عليها الا بعد شدة ، فتذبح البقرة ويضرب القتيل بجزء منها ، فيحيا ويخبر بقاتله ، ومع هذه الآية الواضحة القوية تظل قلوبهم قاسية ، فهى كالحجارة أو أشد قسوة : « وان من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وان منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون » .

الربع الخامس :

عناد ونفاق

(*) وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه يطمعون فى انهم يسارعون الى الايمان به وذلك نظرا الى انهم أهل دين سماوى أصوله هى أصول رسالته وكتابهم يبشر به ويذكر أوصافه ، ولكن الله يعلم منهم خلاف ذلك ، فهم سلالة هؤلاء الذين احتفظ لهم التاريخ بكثير من المساوىء الدينية ، ومواقف العناد والمكابرة لرسلهم ، ولم يعملوا على تطهير أنفسهم مما كان عليه الاسلاف ،

(*) من الآية ٧٥ الى نهاية الآية ٩١ من سورة البقرة .

وقد قص الله على نبيه فيما سبق كثيرا من مساوئهم ، كما قص عليه كثيرا من النعم التى كان يعالجهم بها ، المرة بعد الأخرى ، وفى هذا وجه الخطاب الى النبى وأصحابه باستبعاد ايمانهم ، وبأنهم على عكس ما يطمعون . وأخذ يلفت الأنظار الى أنهم فى الانحراف عن الحق يشقون طريق أسلافهم ، ويسيرون على منهجهم ، فمنهم فريق يسمع كلام الله ويفهمه على وجهه الصحيح ، ثم يحرفه ويصرفه الى غير وجهته ومنهم فريق ينافق المؤمنين فيظهر لهم الايمان ، ويذكر ما يجده فى التوراة من أوصاف محمد ، واذا خلا بعضهم الى بعض تعاتبوا وتلاوموا ، وقالوا لبعضهم : « أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم افلا تعقلون » .

ومنهم فريق لا يعلمون التوراة الا تلقفا من أفواه الأحبار والرؤساء على حسب ما أرادوا لها من التحريف والكذب والتدليس . هؤلاء الرؤساء الذين يكتبون الكتاب للناس بأيديهم على حسب أهوائهم ، وينشرونه عليهم «ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا» .

هذه بعض خلالهم ، فكيف تطمعون فى سرعة ايمانهم ؟

أكاذيب مردودة

ثم أخذ يتتبع كلماتهم المسمومة التى كانوا يلقونها على مسامع الناس ليشككوهم فى صدق الدعوة ، ويصدوهم عن تلبيتها ؛ شأن المبطلين فى محاربة الحق فى كل عصر وفى كل مكان ، كانوا يقولون : « نحن أبناء الله وأحباؤه » . « ولن تمسنا النار الا أياما معدودة » وكانوا يقولون : « قلوبنا غلف » مقفلة ، لا تدرك شيئا مما يقول ، ولا تتجه اليه ، فيرد الله عليهم بأن تأقيت العذاب أو خلوده لا يعرف الا من جهته سبحانه ، فهل أنزل عليكم فيه وحيا ، وأخذتم به عليه عهدا : « أم تقولون على الله ما لا تعلمون » ؟..

الجزاء من جنس العمل

وليست المسألة عند الله مسألة محاباة بحب أو بنوة ، وانما هى ذات مبدأ عام ، وحكم عام ، ان تحقق المبدأ تحقق الحكم ، وان لم يتحقق المبدأ لم يتحقق الحكم ، وبنو اسرائيل وغيرهم فى المبدأ والحكم

سواء : « بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون » ..

هذا هو المبدأ ، ونحن اذا جئنا نطبقه على حالتهم ، وجدناهم قد أخذ الله عليهم الميثاق أن يعتقدوا الحق ، وأن يفعلوا الخير : « واذ أخذنا ميثـاق بنى اسرائيل لا تعبدون الا الله وبالوالدين احسانا » . كما أخذ عليهم الميثاق ألا يفعلوا الشر ولا يقترفوا المحرم : « واذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم » . ثم وجدناهم قد نقضوا العهدين ، فتولوا عن فعل الخير ، وتظاهروا بالاثم والعدوان . واذن فبحكم المبدأ ليس جزاء من يفعل ذلك منهم : « الا خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون » .

ايثار الدنيا سبب البلاء

ثم كشف لهم الغطاء عن سبب هذه المخالفة الكامن فى نفوسهم ، وأنه هو ايثارهم الحياة الدنيا وزخارفها على الآخرة ، واهمالهم بذلك تعاليم أنبيائهم الذين أرسلوا اليهم واحدا بعد الآخر يدعونهم الى الهدى والحق فلم يحفلوا بهم ، واستكبروا عن اتباعهم : « ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون » . أما قولكم : « قلوبنا غلف » فواقع الأمر أن الله لم يخلق القـلوب غلفا مقفلة ، وانما خلقها مستعدة لقبـول الحق ، وهم بكفرهم ، وضـعوا عليها الغلافة والقفل : « بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون » ، وها هم أولاء يعلمون أن نبيا سيبعث ، مصدقا لما معهم ، وكانوا يطلبون به الفتح على أعدائهم قبل مجيئه : « فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به » وضعوا الغلاف على قلوبهم ، وباعوا أنفسهم بالشهوات والأهواء ، وكفروا بالله ورسوله ، لا نزولا على حجة ، وانما بغيا وحسدا ، أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده : « فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين » ..

وكان من كلماتهم التى يبررون بها عدم ايمانهم ، اذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قولهم : « نؤمن بما انزل علينا » فهو الذى نثق بأنه من عند الله ولا شأن لنا بغيره ، فيرد الله عليهم : بأن القرآن

الذى يطلب منهم الايمان به ، هو « الحق » الذى تنشده الفطرة ، ويشهد بصحته الوجدان ، وهو مصدق لما أنزل عليهم ، فاذا كفروا به فقد كفروا بما أنزل عليهم . ثم كيف يقبل منهم أنهم يؤمنون بما أنزل عليهم ، وقد قتلوا أنبياء الله الذين بلغوهم اياه ؟ ! وكيف يقبل منهم وقد حفظ لهم التاريخ أنهم عبدوا العجل فى غيبة موسى بعد أن جاءهم بالبينات ، وأنهم قالوا حينما أخذ عليهم الميثاق بما نزل عليهم : « سمعنا وعصينا » ؟ أهذا ايمانهم بما أنزل عليهم ؟! « قل بئسما يأمركم به ايمانكم ان كنتم مؤمنين » .

الربع السادس :

مزاعم باطلة

(*) والحديث فيه لا يزال فى شأن بنى اسرائيل المعاصرين للنبى صلى الله عليه وسلم ، ومناقشة كلماتهم التى كانوا يسممون بها جو الدعوة ، ويلبسون بها على الناس . وقد كان فيها قولهم : « نؤمن بما أنزل علينا » ، ومعناه انهم لا يؤمنون بما سواه . فرد الله عليهم بأن القرآن الذى يطلب منهم أن يؤمنوا به هو الحق ، وانه مصدق لما انزل عليهم ، فكيف يزعمون انهم يؤمنون بما أنزل عليهم ؟ ! وكيف يصدقون فى هذا وقد قتلوا أنبياءهم من قبل ، وحفظ لهم التاريخ أنهم عبدوا العجل فى غيبة موسى : « ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون » . ثم يختم الرد عليهم بقوله : « قل بئسما يأمركم به ايمانكم ان كنتم مؤمنين » .

ثم يرد عليهم مزاعم اخرى باطلة ، كانوا يقولون : ان الدار الآخرة خالصة لنا لا ينال نعيمها أحد سوانا ، فقيل لهم اذن : « فتمنوا الموت ان كنتم صادقين » . ثم يتحداهم بما لا يعجزون عنه . ويستخرج السبب الواقعى الذى تنطوى عليه قلوبهم من حب الدنيا وشدة الحرص عليها : « ولن يتمنوه ابدا بما قدمت أيديهم » . « ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا » . ثم يكشف عن واقع أمرهم : « يود أحدهم لو يعمر ألف

(*) من الآية : ٩٢ الى نهاية الآية ١٠٥ من سورة البقرة .

سنة » خوفا من العذاب الذى يلاقونه ، ولكن ليعلموا ان التعمير فى الدنيا مهما طال امده ، لا يبعدهم عن عذاب الله ، فهو لاحق بهم لا محالة ، ولكل بداية نهاية ، ولكل أجل كتاب : « والله بصير بما يعملون » .

ثم كان من كلماتهم فى عدم الايمان بمحمد قولهم : ان الذى ينزل عليه بالوحى هو جبريل ، وأن جبريل بينه وبينهم عداوة ، وقد رد الله عليهم بأن جبريل ما هو الا رسول ، نزله باذنه على قلب محمد ، وبأن ما نزل به جبريل لم يكن مخالفا لما عندهم ، بل كان مصدقا له ، وكان هاديا ومنقذا من الضلال ، واذن فعداوة جبريل ، عداوة لمن نزله ، وتكذيب منهم لما عندهم ، وعداوة للهداية . والعاقل لا يرفض الهداية أيا كان مصدرها . .

ثم يوضح الله الحق فى هذا الشأن ، وهو أن ما نزل به جبريل أو غيره من الملائكة على محمد ، أو على غيره من الأنبياء هو فى حقيقته من الله وبأمر الله ، فمن اتخذ أحدا منهم عدوا فقد عادى الله . . ومن عادى الله ، عاداه الله « قل من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين ، من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فان الله عدو للكافرين » .

الاسلام دين الفطرة

ثم أخذ يطمئن النبى صلى الله عليه وسلم بأن ما انزل عليه من آيات بينات واضحة لا يكفر بها الا من فسد طبعه ، وزاغ عن فطرته . فلا تكترث يا محمد بكفر هؤلاء الذين فسقوا عن امرنا ، وكلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم ، وهذا شأنهم فى العهود ، وهو كشأنهم فيما ينزل مصدقا لما معهم . وتكذيبهم لما يصدق ما معهم تكذيب لما معهم ، وبهذا يصيرون كأنه لم ينزل عليهم شىء ، وكأنهم لا يعلمون .

ما كفر سليمان وما ضل الملكان

نبذوا هداية الله قديمها وحديثها ، واخذوا يصرفون الناس عن

النظر فى الحقائق بالأوهام والأكاذيب ، التى كان يخترعها المردة المفسدون عن ملك سليمان ، وعما أعطاه الله للرجلين الصالحين ببابل هاروت وماروت ..

كانوا يخترعون أن ملك سليمان أساسه السحر والشعوذة ، وأن الملكين عندهما أشد أنواع السحر التى تفرق بين المرء وزوجه ، ولمثل هذه الأحاديث شيوع ، فشاعت بين الناس حتى تأثروا بها ، واتخذوها ديدنهم فى الحياة ، وشغلوا بها حتى صرفتهم عن كل خير وفضيلة . وقد بين الله الحق فيما اختلقوا على سليمان وعلى الملكين ، وقرر أن سليمان ما كان ساحرا وما كفر بنعمة ربه ، انما كان هاديا ورسولا ، وأن الملكين : الرجلين الصالحين ما كانا بمفسدين فى الأرض ، ولا بمدلسين على النـــاس ، وانمـــا كانا ناصحين أمينين : « وما يعلمان من أحد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر » ، ولكن المفسدين أنكروا على سليمان النبوة والملك الالهى ، كما أنكروا فضل الله على الرجلين الصالحين فى معرفة خصائص الأشياء وأسرار النفـــوس ، وزعموا أن ما عنـــدهما وما عند سليمان سحر وشعوذة ، وبهما بلغا ما بلغا ، فاتبعوه على ما رسموا وتخيلوا ، وأخذوا ينفثون به فى الروابط البشرية لتحل ، والصلات الانسانية لتتقطع : « يفرقون به بين المرء وزوجه » ، بين الوالد وولده ، بين الأخ وأخيه ، بين الصديق وصديقه ، وبالتالى بين الرسول وقومه ، وبين الناس وهداية الله : « وما هم بضارين به من أحد الا باذن الله ، ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ، ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون » .

وعبرتنا من تلك القصة أن نعنى بالحقائق النافعة ، ولا نشغل أنفسنا بالأوهام والخيالات .

ثم تحذر الآيات المؤمنين مخاطبة النبى ببعض الكلمات التى كان يستغلها المعاندون فى الاستهزاء بالرســـول ، وتأمرهم بالسمع والطاعة وتتوعد المستهزئين بالعذاب الأليم . ثم ترشد الآيات الى أن عناد الكافرين منشئوه كراهتهم أن ينزل على المؤمنين خير من ربهم ، ولكن الله يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

الربع السابع :

المعجزة شأن من شئون الله

(*) والحديث فيه ايضا لا يزال فى بنى اسرائيل ، وقد كان من كلماتهم فى التاثير على الناس وصرفهم عن الايمان بمحمد ، انه لم يأت بمعجزة تدل على أنه رسول من عند الله ، وكانوا يطلبون معجزات مثل معجزات موسى وعيسى .. وكان العرب مثلهم فى هذا الشأن ، فرد الله عليهم بأنه لا يترك معجزة من المعجزات السابقة التى يذكرونها ويطلبون مثلهـا ، او التى أنساهم اياها فلا يذكرونها ، الا اتى لرسوله محمد بمعجزة هى خير من المعجزات السابقة ، او مثلها على الاقل فى الدلالة على صدقه : « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها » .

فالمعجزات شأن من شئوننا ، نختار منها ما نعلم انه اوفق للمصلحة ، وأقدر على الاقناع وأنسب للعصر . ثم أخذ يذكرهم بسؤال أسلافهم لموسى ، وحذرهم أن يسألوا محمدا كما سئل موسى من قبل ، واشار الى أن هذا عدول عن الايمان الى الكفر : « ومن يتبدل الكفر بالايمان فقد ضل سواء السبيل » . وفى هذا تحذير لضعاف الايمان من المؤمنين أن يسمعوا لكلامهم ، او يسيروا فى طريقهم وقد أرشدهم الى ان هؤلاء المشككين يودون ان ترجعوا كفارا ، حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ، فاحذروا التأثر بهم ، ولا يحملنكم بغضهم اياكم أن تعتدوا عليهم : « فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره » ، وعليكم بتطهير انفسكم بالصلاة ، وتقوية روابطكم بالزكاة : « وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله » .

ثم يعود فيذكر بغرور هؤلاء المكذبين ، وزعمهم أنه لن يدخل الجنة الا من كان منهم ، ويطالبهم ببرهان ذلك ان كانوا صادقين . ويقرر أن أساس الأجر عند الله هو اسلام الوجه لله والاحسان الى عباد الله : « بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

(*) من الآية ١٠٦ الى نهاية الآية ١٢٣ من سورة البقرة .

مسلك مخرب

ثم أخذ يطمئن المؤمنين بأن خطة هؤلاء فى التشكيك والتكذيب والانكار ، ليست شأنا خاصا بكم ، وانما هى شأنهم حتى فيما بينهم : ينكر بعضهم على بعض ، ويجهل بعضهم بعضا ، والكتاب بين أيديهم ، يزعمون أنهم يؤمنون - ، وانهم أرباب الدين الخالد . وبهذه الخطة الفاسدة التى فرقت كلمة الله اعتدى بعضهم على بعض ، وتحاربوا حتى خربوا أماكن العبادة ، ومنعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وتقام عبادته . وما كان لهم أن يختلفوا فى مثل هذا الشأن ، ولا أن يعتدى بعضهم على بعض بسببه ، فلله المشرق والمغرب ، يعبد فى كل مكان : « فأينما تولوا فثم وجه الله ان الله واسع عليم » ولم تقف بهم هذه الخطة الفاسدة عند حد الاعتداء عليكم ، أو اعتداء بعضهم على بعض ، بتخريب أماكن العبادة والتقديس ، وانما امتدت أهواؤهم الى الجانب الأقدس ، فزعموا أن لله ولدا ، وطلبوا أن يكلمهم أو يخصهم بآية من عنده ، فيرد عليهم بأن له ما فى السموات والأرض،وبأن كل من فيها قانت له وخاشع، وانه خالقهما ومدبرهما ، وانه اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون . واذا كان هذا شأنه فى الملك والتصريف والايجاد ، فكيف يكون له ولد ينفصل منه — وينسب اليه بالجزئية التى هى أساس البنوة والأبوة : « لم يلد ولم يولد » . يرد عليهم فى طلب مكالمته اياهم بأنه طلب التعنت والاعراض عن الآيات : « كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم ، تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون » .

توجيه ونصح

ثم وجه الخطاب الى النبى صلى الله عليه وسلم بتأكيد ارساله بالحق بشيرا ونذيرا ، وبأنه غير مسئول عن كفر من كفر ، واعراض من أعرض ، وبأن هؤلاء لا يرضون عنك حتى تترك ما أنت عليه من رسالة ربك وتتبع ملتهم . ثم تحذر الآيات أتباعه فى شخصه أن يتبعوا أهواءهم ، ويتأثروا بهم ، بعد ما ظهر لهم من العلم والهدى ، وتنذرهم اذا هم سلكوا طريقهم بحرمانهم من ولاية الله ونصرته : « مالك من الله من ولى ولا نصير » .

هذا شأن الكثرة الساحقة من هؤلاء الذين كنت يا محمد تطمع فى ايمانهم وسرعة تلبيتهم قد بيناه ، ومع هذا ففيهم من يرجى خيره ، وهم الذين يتلون الكتاب حق تلاوته ، ويتفهمون حكمه واسراره ، فأولئك هم الذين يصح ان تعلق بهم رجاء الايمان ، وتطمع فى تلبيتهم دعوتك : « الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته ، اولئك يؤمنون به » أما الأكثرون من الرؤساء المعاندين ، والمقلدين الجاهلين ، فأولئك هم الخاسرون ، الذين لا ينبغى ان تكترث بهم ، ولا ان تطمع فى ايمانهم ..

ثم تعود الآيات وتستحثهم على الايمان ، وتناديهم كما نادتهم أولا بنسبتهم لاسرائيل ، نبى الله يعقوب ، وتذكرهم بنعمة الله عليهم ، وانه لا يليق بمن كرمه ربه ، وفضله بالحكم والنبوة ، ان يكون حظه من هداية الله الجحود والانكار . وفى سبيل هذا تنذرهم كما أنذرتهم من قبل باتقاء يوم الحساب والجزاء : « يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى انعمت عليكم وانى فضلتكم على العالمين ، واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ، ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون » ..

ســورة آل عـمران

الربع التاسع :

أصيب المسلمون فى غزوة أحد بما سجلته سورة « آل عمران » وسمعوا بعد الهزيمة من الكفار والمنافقين كثيرا من كلمات الشماتة والتخذيل : « لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا ها هنا »، « لو نعلم قتالا لاتبعناكم » ، « لو أطاعونا ما قتلوا » .

جزاء الشهداء

(*) وقد أرشد الله فى هذا الربع الى جملة من العلاج الذى يحفظ على المسلمين قوتهم المعنوية من التأثر بكلمات الشماتة والتخذيل . وكان مما أرشدوا اليه فيما يختص بقتلى أحد ، الذين جادوا بأنفسهم فى سبيل الله ، انهم ليسوا — كما يظن هؤلاء — أمواتا توارت أجسامهم ، وطويت صفحتهم ، وذهبوا الى حيث لا يذكرون، بل لقد ارتقى بهم ايمانهم واستشهادهم الى العندية القدسية ، تشرق عليهم فيها أنوار التجليات ، ويتمتعون بما أعد لهم من الفضل الالهى : « فرحين بما آتاهم الله من فضله » ، وفرحين بما راوا من المكانة التى أعدت لاخوانهم الذين تركوهم فى الدنيا ، يشقون طريقهم بايمان مثل ايمانهم ، وجهاد مثل جهادهم . تركوهم يستجيبون لله وللرسول ، غير مكترثين بأراجيف المرجفين ، ولا فتن الضالين المكذبين ، بل قالوا : حسبنا الله ، واتبعوا رضوانه . وما زادتهم الفتن والأراجيف الا ايمانا على ايمان ، وقوة على قوة : « الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » .

وكان مما أرشدوا اليه فيما يختص بهؤلاء المرجفين ، ان ارجافهم — وهم الشياطين المفسدون — لا يؤثر الا على مثل أتباعهم ضعاف الايمان ، فاسدى العقيدة ، وليس له سلطان على المؤمنين الذين يملأ الايمان قلوبهم فيحفظها من التأثر بالأراجيف

(*) من الآية ١٧١ الى نهاية الآية ١٨٥ من سورة آل عمران .

والفتن ، وسينزل بهؤلاء المفسدين الجزاء الذى يستحقون : « انما نملى لهم ليزدادوا اثما ولهم عذاب مهين » . .

عبر من الهزيمـــة

وكان مما أرشدوا اليه حكمة الهزيمة التى أصيبوا بها وهى : أن الله يريد تطهير صفوف المؤمنين من أرباب القلوب الفاسدة ، وليس من شأنه فى ذلك أن يوحى بما فى الضمائر من خبث ونفاق ، وانما شأنه وسنته أن يصطفى رسلا يدعون الى الايمان وفى ظل السلم يختلط الكاذب بالصادق ، والخبيث بالطيب ، فيجرى الله أحداثا ويسوق شدائد ، تميز الخبيث من الطيب وتطهر جماعة الايمان الحق ، فيوافيهم بالنصر والتأييد : « فآمنوا بالله ورسله وأن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم » .

عاقبة البخلاء

وكان مما أرشدوا اليه أن هؤلاء الذين يقبضون عن الانفاق فى سبيل الله ، ويبخلون بما آتاهم الله من فضله : « سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة » ويكون حملا ثقيلا فى أعناقهم لا يستطيعون التخلص من تبعاته ، وسيرجع ما بأيديهم الى الله الذى له ميراث السموات والأرض ، والذى أنعم عليهم به من فضـــله ليبلوهم أيشكرون أم يكفرون .

وبهذه المناسبة عرضت الآيات للتحقير من شأن كلمات كان يلقيها الأعداء بقصد الحط من مكانة الرسالة وصاحبها عليه الصـــلاة والسلام : « ان الله فقير ونحن أغنيـــاء » ، « ان الله عهد الينـــا الا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النـــار » . وتتوعدهم بالعـــذاب الأليم ، وتأمر الرســـول بأن يـــرد عليهم بقـــوله : « قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات وبالذى قلتم فلم قتلتموهم ان كنتم صادقين » ؟

تســلية

ثم تأخذ فى تسلية الرسول فى تكذيب القوم له ، بأن اخوانه السابقين قد كذبتهم أممهم من قبل بعد ان جاءوهم بالبينات ، وكان

جزاء الرسل لما صبروا النصر والتأييد ، وجزاء القـــوم المكذبين الخزي والدمار . وتلك سنتنا مع الأولياء والأعداء ، وستنقضى هذه الدنيا وتذهب كل النفوس الى بارئها وتوفى كل نفس ما عملت ، ويرى المؤمنون الصـــادقون ما أعـــد لهم من نعيم دائم ، ويرى الكافرون المكذبون ما أعد لهم من عذاب اليم : « فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور » ..

الربع العاشر :

اعداد واستعداد

(*) بعد أن أرشد الله المؤمنين الى حكمة الهزيمة التى أصابتهم فى أحد ، لفت أنظارهم الى أن ماأصابهم فى تلك الغزوة ليس آخر ابتلاء يصيبهم من أعدائهم ، واكد لهم انهم سيختبرون فى مستقبل حياتهم بالشدائد فى الأموال والأنفس ، بالفعل وبالقول من فريقى المعارضين لهم ، وسيرون أذى كثيرا .. فلا يظنوا أن الأمر يقفه عند حد هذه الغزوات الأولى ، فمرحلة الجهاد طويلة ، وتضحيات النصر كثيرة ، فليوطنوا أنفسهم عليها ، ويستعينوا على تحملها بالصبر والتقوى : « لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا ، وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الأمور » .

ثم أخذ يذكرهم بسوء عاقبة أعدائهم بجرائمهم التى اقترفوها وصدوا بها الناس عن الايمان بالحق ، فهم قوم نقضوا ميثاق الله ، ونبذوه وراء ظهورهم ، واشتروا به ثمنا قليلا ، وفرحوا بما ارتكبوا فى جنب الله ، وعملوا جهدهم على أن يعتقد الناس فيهم أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وحملوهم بذلك على أن يعظموهم وأن يســـمعوا لدعواتهم فى التأليب ضد الحق الذى يدعو اليه الرسول وصحبه المخلصون : « لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب اليم »

(*) من الآية ١٨٦ الى آخر سورة آل عمران .

الأمر والتدبير لله وحـــده

وبعد أن تفرغ الآيات من ارشاد المؤمنين الى ما يجب عليهم من الصبر والتقوى فى مواقف الجهاد والاخلاص فى الدعوة ، والى ما سينزل بخصومهم من عاقبة كيدهم وطغيانهم ضد الحق وأهله ، تأخذ فى تقرير ربوبية الله ، وأنه صاحب الأمر والملك والتدبير فى السموات والأرض ، لا شأن لأحد فيهما سواه . فهو القادر على الوفاء بما وعد المؤمنين ، وما توعد به الكافرين : « ولله ملك السموات والأرض والله على كل شيء قدير » . .

وجوب النظر فى آيات الله

ثم تأخذ الآيات فى فتح أبواب العظة والاعتبار ، ودلائل القدرة للذين خلصت قلوبهم من الأهواء والشــهوات ، وتحكم التقاليد الباطلة : « ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب » .

ثم تصف أولى الألباب بصفتين : هما الحبل المتين الذى يصل الانسان بربه ويقيه شر المآثم والطغيان فى هذه الحياة : « الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم » أى يذكرونه بعظمته وجلاله وقدرته فى جميع أوقاتهم ، وفى جميع شئونهم ، ثم يكون هذا الذكر نتيجة لتدبرهم فى خلق السموات والأرض وما فيهما من اتقان وابداع ، وعجائب وأسرار ، فليس ذكرا ينطلق به اللسان ، ولا يدفع اليه الجنان ، انما هو ذكر ينبع من القلب الى سماء الرب ، فيرفع همة صاحبه فينطلق لسانه بالدعاء وقلبه بين الخوف والرجاء : « ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك » تنزيها لك عن الباطل فى خلقك وفعلك وحكمك : « فقنا عذاب النار » بدوام توفيقك وعنايتك . ثم يذكرون مآل غضبه سبحانه على الذين ظلموا الحق فأنكروا ربوبيته وكفروا برسالته ، فيكون دعاؤهم : « ربنا انك من تدخل النار فقد أخزيته ، وما للظالمين من أنصار » . . ثم يؤكدون تلبيتهم لدعوة الحق التى ارتضاها لعباده على لسان نبيه ، ويلتمسون منه المغفرة والانعام عليهم بما وعد المؤمنين المخلصين فيكون قولهم : « ربنا اننا سمعنا مناديا ينادى للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ، ربنا

وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة انك لا تخلف الميعاد » ..

* * *

هذا موقف الذاكرين لربهم ، المفكرين فيما خلق ودبر ، عرف منهم الصدق فى الايمان والذكر والتفكير والتنزيه : « فاستجاب لهم ربهم انى لا اضيع عمل عامل منكم من ذكر او انثى ، بعضكم من بعض » لا تفاضل بينكم الا بالعمل والتقوى ، وقيام كل بما طلب منه .

ثم يذكر بعض اسباب النعيم وتكفير السيئات ، والمثوبة الدائمة ، ويخص أهم ما يطلب من المؤمن وقت ثورة الكفر على الايمان ، فيذكر الهجرة والاخراج من الديار ، والايذاء فى سبيل الله ، والقتال والقتل ، ويجعل هذه أبرز دلائل الايمان ، واقرب ما يوصل الانسان الى ثواب الله ورضوانه : « والله عنده حسن الثواب » .

تسلية وتوصـــية

ثم اخذ يسليهم عما كلفوه من مشاق الجهاد ، ويحذرهم الاغترار بتقلب الذين كفروا فى البلاد ، ويؤكد لهم انه متاع قليل ، ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد ..

أما المؤمنون الذين اتقوا ربهم فمأواهم جنات تجرى من تحتها الأنهار .

ثم يرشد — احقاقا للحق — الى أن من أهل الكتاب ، الذين يحاربونكم ويناصبونكم العداء ، طائفة تؤمن بالله ، وتؤمن بما أنزل اليكم وما أنزل اليهم ، خاشعين لله لا يؤثرون دنياهم الفانية على رضا الله الباقى . ويبين أن هؤلاء لهم أجرهم عند ربهم ، وفى هذا اطماع لغيرهم من أهـــل الكتاب فى أن يعـــدلوا عن موقفهم من المؤمنين ، وأن ينهجوا منهج اخوانهم الخاشعين لله ، المحافظين على حدوده .

ثم تختم السورة بهذه الوصية الفذة ، التى بها يتحقق الخير كله، وبها يعظم النصر ويحق الجزاء ، ويتم الفلاح : « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

ســـورة النســـاء

الربع الأول :

(*) سورة النساء أطول سورة مدنية بعد سورة البقرة ، وهى سورة مليئة بالأحكام التى ينظم بها المؤمنون شئونهم الداخلية ، والأحكام التى يحفظون بمراعاتها وتنفيذها كيانهم واستقلالهم ، ويدفعون بها كيد الكائدين ، واغارة المحاربين ، وسميت بسورة النساء لكثرة ما ورد فيها من الأحكام التى تتعلق بهن ، بدرجة لم توجد فى غيرها من السور ، ولذلك أطلق عليها « سورة النساء الكبرى » فى مقابلة « سورة النساء الصغرى » التى عرفت فى القرآن بسورة « الطلاق » .

الناس من أصل واحد

وقد افتتحها بنداء الناس كافة ، وامرهم جميعا بتقوى الله ، وذكرهم فى سبيل ذلك الأمر بنعمة الخلق والايجاد من نفس واحدة « خلق منها زوجها » وكان منها الناس جميعا رجالا ونساء ، وبذلك جمعهم أصل واحد : أبوة واحدة ، أمومة واحدة ، وربطت بينهم رحم واحدة ، هى رحم الانسانية العامة . ثم أعاد الأمر بتقوى الله الذى اليه تفزع القلوب ، وتتوثق العلائق ، كما أمرهم بتقوى الأرحام التى بينهم والتى ترجع الى أصل واحد ، كانت منه الشعوب، والقبائل ، والأسر . وقد مهدت بهذا كله للأحكام التى وضعها الله للناس ليحفظ قويهم ضعيفهم .

رعـــاية اليتيم

ومن هنا ذكرت أحكام اليتيم الذى فقد أباه ، والسفهاء الذين لا يحسنون التصرف ، والنساء اللاتى تنتظمهن ولاية الرجال ، ففى

(*) من أول سورة النساء الى نهاية الآية ١١ .

اليتامى أمرت بحفظ أموالهم حتى يتسلموها عند رشدهم كاملة غير منقوصة ، وحذرت الاحتيال على أكلها عن طريق المبادلة « ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب » . أو عن طريق الخلط : « ولا تأكلوا أموالهم الى أموالكم » . ووصفت ذلك بأنه اثم كبير . كما أرشدت الى ترك التزوج من اليتامى عند خوف استغلال الحياة الزوجية فى أكل أموالهن ، وعدم العدل معهن . وارشدت الى أن لهم فى غيرهن من النساء متسعا للتزوج منهن ، واحدة ، ومثنى ، وثلاث ، ورباع .

وذكرتهم فى هذه الحالة أيضا بالعدل بين النساء حتى اذا لم يأنس الرجل من نفسه القدرة على العدل بين المتعدادت من الزوجات ، وجب عليه الاقتصار على واحدة ، تنزيها لنفسه ، واستبراء لدينه : « ذلك أدنى ألا تعولوا » . .

تشريع المهور

وبهذه المناسبة امرت باعطاء الزوجات مهورهن التى أطلق عليها « نحلة » أى فهى ليست اجرا ، ولا ثمنا ، وانما هى عطاء يوثق المحبة ، ويربط القلوب ويديم العشرة .

حفظ أموال اليتامى والسفهاء

وفى جانب السفهاء وهم الصغار الذين لا يعقلون والمجانين والمعاتية ، وكل من لا يحسن التصرف ، حذرت دفع الأموال اليهم إحتفاظا بها لهم ، وابقاء عليها للأمة . فهى فى الواقع مال الجميع . وأشارت الى تنميتها واستثمارها عن طرق التنمية والاستثمار المشروعة ، وجعلت رزقهم وكسوتهم من أرباحها لا من أصولها ، كما أمرت بمعالجة السفهاء من السفه بارشادهم الى الحكمة وحسن التصرف وفائدة حفظ الأموال . وأمرت بمثل ذلك فى جانب اليتامى : « وابتلوا اليتامى » أى اختبروهم فى المعاملات حتى يتعودوا البيع والشراء . ثم حددت الوقت الذى تسلم فيه الأموال اليهم وهو وقت الرشد ، بعد ان يصلوا الى سن البلوغ ، فمن لم يبلغ لا تسلم اليه أمواله ، ومن بلغ ولم يرشد لا تسلم اليه أمواله . وكانت تلك التعاليم مصدرا لقانون المجالس الحسبية فيما يختص

بالحجر على السفيه ، والقوامة عليه وعلى اليتيم . ثم أباحت الآية للأوصياء ان يأخذوا من أموالهم بقدر كفايتهم اذا كانوا فقراء : « ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف » .
ثم ختمت الآيات هذه الأحكام بتهديد الأوصياء فى أبنائهم الذين يتركونهم فى كفالة غيرهم ، ليفعلوا مع أبناء غيرهم ما يحبون أن يفعل الغير مع أبنائهم ، كما هددتهم بالعذاب الأخروى الذى صورته الآيات بأقوى ما يقلع من النفس جشعها : « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم » ، « ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما انما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا »

الارث فى الاسلام

وقد كان أهل الجاهلية لا يورثون النساء ولا الأطفال ، ويقولون لا يرث الا من طعن بالرماح وذاد عن الحوزة ، وحاز الغنيمة ، فابطل الله ذلك وجعل الميراث بسببين اثنين : النسب والزوجية ، وبهما عم الرجال والنساء ، والصغار والكبار ، وجاء فى ذلك على وجه العموم .

أولا : قوله تعالى : « للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا » . .

ثم جاءت آيات الربع الثانى وفيها التفصيل والتصريح بما يعم الرجال والنساء ، والصغار والكبار ، والأزواج والزوجات ، ثم أرشدت الآيات الى مبدأ له أثره العظيم فى تطييب نفوس الذين يحضرون القسمة والتوزيع من الفقراء والمساكين والأقارب الذين لا يرثون ، « واذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا » .

وهذه الآية مستند قوى لمن أراد لضريبة التركات مستندا الهيا كريما من كتاب الله ووحيه ، أما المبادىء التى روعيت فى توزيع التركات وتقسيم الميراث ففى قوله تعالى : « يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين . . »

الربع الثانى :

تفصيل الميراث

(*) بين الله فى هذا الربع ، وفى آخر آية من السورة ، الوارثين والوارثات ونصيب كل وارث بالوصف الذى قرره الله سببا للاستحقاق ، فذكر الارث بالبنوة ، وبالأبوة ، وبالأمومة ، وبالزوجية ، وبالأخوة وأهمل استحقاق الارث بالتبنى الذى كان معروفا عند الجاهلية . وقد جاء ذلك كله فى ثلاث آيات : « يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين ... » ، « ولكم نصف ما ترك أزواجكم ... » ، « يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة ... » وفى هذه الآيات الثلاث بين ميراث الأبناء : « للذكر مثل حظ الانثيين فان كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وان كانت واحدة فلها النصف » وميراث الوالدين : « ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك ان كان له ولد ، فان لم يكن له ولد وورثه أبواه ، فلأمه الثلث ، فان كان له اخوة فلأمه السدس » . وميراث الزوج : « ولكم نصف ماترك أزواجكم ان لم يكن لهن ولد ، فان كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن » . وميراث الزوجة : « ولهن الربع مما تركتم ان لم يكن لكم ولد ، فان كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم » . ولا يخفى ما فى تقرير الارث بالزوجية من تركيز للأسرة على أساس قوى فى تبادل التعاون والشعور بالمسئولية المشتركة ، حتى كأن الزوجية نوع من النسب والقرابة الأسرية ..

ميراث الاخوة

أما ميراث الأخوة فيتبع جهة الأخوة ، فميراث اخوة الأمومة ذكر بقوله : « وان كان رجل يورث كلالة (من لا ولد له ولا والد) أو امرأة ، وله اخ أو اخت فلكل واحد منهما السدس ، فان كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث »

وميراث الأخوة الأشقاء ، أو لأب ذكر فى الآية الثالثة التى ختمت بها السورة : « ان امرؤ هلك ليس له ولد وله اخت فلها نصف

(*) من الآية ١٢ الى نهاية الآية ٢٣ من سورة النساء .

ما ترك وهو يرثها ان لم يكن لها ولد ، فان كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك ، وان كانوا اخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين » .

وجدير بالمؤمنين اذا قرءوا هذه الآيات أن يتدبروا قوله تعالى : « يوصيكم الله فى أولادكم » ، وقوله : « وصية من الله » ، وقوله : « يبين الله لكم أن تضلوا » وقوله : « تلك حدود الله » ، وقوله : « ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين » جدير بهم أن يتدبروا تشديد الله فى المحافظة على احكام الميراث كما بينها بيانا شافيا ؛ ليس محل اجتهاد ، ولا قابلا للتغيير ، فلا يتحدث منهم متحدث بالاستظهار على تشريع الله ، ولا تغيير أحكامه ، وكتاب الله بين واضح ، يتلوه الصغير والكبير ، ويعرف حكمه الفقيه وغير الفقيه .

الارث بعد قضاء الديون وتنفيذ الوصايا

وقد صرحت الآيات بأن تقسيم التركة على المستحقين انما يكون بعد قضاء الديون ، وتنفيذ الوصايا التى لم يقصد بها حرمان مستحق ، أو ايذاء وارث ، ومنه يعلم بطلان التصرفات التى تجيء على اساس من حرمان بعض الورثة ، كعادة حرمان الاناث بالبيع الصورى ، أو بالوقف الذى أراح الله الناس منه : « من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار ، وصية من الله والله عليم حليم » .

حفظ الاعراض

ثم تنتقل الآيات الى نوع من التأديب لمن يرتكب الفاحشة من الرجال والنساء وهو من قبيل التنبيه على الواجب بعد التنبيه على الحق : ففى فاحشة النساء : « واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فان شهدوا فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت ، أو يجعل الله لهن سبيلا » . وفى فاحشة الرجال : « واللذان يأتيانها منكم فآذوهما » . .

تعزير يؤدب به النســـاء أو الرجال فى فعل الفاحشة الخاصة بالجنس حتى يتوبوا ، والتوبة مقبولة عند الله على وجه اليقين اذا فعل الذنب بدافع من الشهوة أو الغضب ، وسارع المذنب الى

الاقلاع والرجوع الى الله أما من يفعلها ويرجىء التوبة الى أن يحضره الموت ويستشعر مقدماته ، فتوبته مرفوضة قطعا ، وهى كتوبة الذين يموتون وهم كفار .. أما توبة الذين يعملون السيئات عن الف واطمئنان ، ثم لا يتوبون عن قرب منها ، فالآية لم تصرح بحكم الله فيها ، فهو اليه ان شاء قبلها وغفر ، وان شاء رفضها وعاقب ، فليكن المؤمن منها على وجل : « انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب » ، « وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر أحدهم الموت قال انى تبت الآن » .

تحذير من عادات جاهلية

ثم تعود الآيات فتحذر من بعض العادات الجاهلية التى كانت تعامل بها النساء : كان الرجل يرث نساء أقاربه ، ويتخذها كالمتاع ليأخذ مالها . وكان يضايق زوجته حتى تبذل له المهر الذى دفعه لها ليتزوج به غيرها ، وفى هذا وذاك اجحاف ايما اجحاف بالضعيف الذى لا يملك أن يدفع عن نفسه ، وفيه تعريض للحياة الزوجية للاضطراب والتحلل ، وفيه اهمال لحق الرحم الانسانى العام ، وفى ذلك يقول الله : « لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها » ويقول :

« وان أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا ، أتأخذونه بهتانا واثما مبينا ، وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم الى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا » .

الربع الثالث :

المحرمات من النســـاء

(*) والكلام فيه ، لا يزال فى الأسرة ، وفيما يختص بتكوينها ، وترشد الآيات هنا الى أصناف لا يحل التزوج بهن ، ولا تكوين الأسرة منهن ، وذلك لما بينها وبين الرجل من صلات لا ينبغى تعريضها للفساد ، ويجب أن ترفع عن مزالق الحياة الزوجية . ومن هنا حرم التزوج بحلائل الآباء ، وقد كان العرب يفعلون ذلك ، وقال فيه

(*) من الآية ٢٤ الى نهاية الآية ٣٥ من سورة النساء .

القرآن : « انه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا » ، وحرم التزوج بالأم وان علت ، والبنت وان نزلت ، والأخوات ، والعمات ، والخالات ، وبنات الأخ ، وبنات الأخت ، وحرم بسبب طارىء وهو الرضاع المكون للبنية مثل ما يحرم بالقرابة . واقتصرت الآية على الأمهات والأخوات ، وجاء فى السنة الصحيحة : « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب » وحرمت أم الزوجة وان لم يكن الرجل دخل ببنتها ، وحرمت بنت الزوجة اذا كان الرجل قد دخل بأمها . وحرمت حلائل الأبناء الذين هم من الأصلاب ، وحرم تحريما مؤقتا الجمع بين الأختين ، ومن فى معناهما ، كالمرأة وعمتها وخالتها ، وحرمت المتزوجات واستثنت الآية منهن المهاجرات المؤمنات اللاتى تركن أزواجهن الكفار ، وتبين صدق ايمانهن : « فان علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن الى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن ولا جناح عليكم أن تنكحوهن اذا آتيتموهن أجورهن » .

ثم صرحت الآيات بحل ما وراء هذه المحرمات ، مشيرة الى فائدة الزواج من احصان الرجال والنساء ، والبعد عن المسافحة والمخادنة كما أوجبت بذل المهور . واشارت الى لزوم تخير الزوجات من العناصر الطيبة وهى الحرائر المؤمنات ، ومنعت التزوج من غيرهن الا عند العجز مع خوف العنت والمشقة ، والوقوع فى الفاحشة ، ومع ذلك فقد قال الله تعالى : « وأن تصبروا خير لكم » . وذلك محافظة على البيئة الصالحة التى يكون منها النسل ، ويتربى فيها .

النهى عن اكل أموال الناس بالباطل

ثم عرضت الآيات بعد أن أرشدت الى الهدف من هذا التشريع وهو الهداية الى سبل السعادة والبعد عن حمأة الشهوات والمفاسد ، عرضت الى العنصر الثانى فى حياة الأسر والجماعات وهو « المال » فنهت عن أكله بالباطل ، والباطل كل ما لم يكن سببا مشروعا فى حل الأموال كالسرقة ، والغصب ، والرشوة ، واجرة البغاء ، والربا ، وما الى ذلك مما نهى الله عنه وله اثره السيىء فى سلالة المجتمع . ولما كان الاعتداء على المال ، من وسائل الاعتداء على النفس جاء فى هذا المقام قوله تعالى : « ولا تقتلوا أنفسكم » ، وتوعدت الآيات بأشد العذاب من يعتدي على اخيه فى ماله أو نفسه ، كما وعدت بتكفير صغائر الذنوب اذا ما اجتنبت هذه الكبائر : « ان تجتنبوا

كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما » .
ولما كان معظم اسباب الاعتداء ، تطلع المقل الى ما بيد المكثر ، وتمنى أن يكون ما فى يده غيره فى يده نهى الله عن ذلك وبين أن لكل كاسب وعامل ثمرة عمله وكسبه فليستغل كل انسان مواهبه وقدرته فى الكسب والعمل ، ولا يتطلع الى شيء غيره : « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض . للرجال نصيب مما اكتسبوا ، وللنساء نصيب مما اكتسبن . واسألوا الله من فضله » .

اما المال الذى يورث ولا يكتسب بالعمل فقد بينت الآيات المستحقين فيه وانصباءهم على حسب ما يعلم الله من مصلحة عباده ، وهم اصحاب القرابة والزوجية ، فحافظوا على قاعدة الكسب ، وحافظوا على قاعدة التوزيع ، ولا يعتد بعضكم على بعض لا فى كسبه ، ولا فى ميراثه : « ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والاقربون والذين عقدت ايمانكم فآتوهم نصيبهم » ..

قوامة الرجل

ولما تضمن تشريع الله للرجال والنساء تفاوتا فى الأعمال والانصباء ، وكان ذلك مبعثا لفكرة التسوية عند من لا يحكمون الطبيعة ولا يفهمونها ، بينت الآيات أن الحكمة فى ذلك ترجع الى طبيعة كل من الرجل والمرأة . فكلف الرجل ، بما له من قوة ، بالجهاد والاعمال الشاقة ، ومنح بما عليه من تبعات مالية وغيرها نصيبا اكثر من نصيب المرأة . وبهذا وذاك كانت له القوامة عليها : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما انفقوا من اموالهم »

معنى قوامة الرجال

ثم ارشدت الآيات الى أن تلك القوامة ليست قوامة استعباد وتسخير وانما هى قوامة رئاسة ونصح وتأديب ، كالتى بين الرجل وابنائه ، والراعى ورعيته . ومن هنا لم يكن لتلك القوامة اثر بالنسبة لصنف الصالحات القانتات ، وانما كان أثرها بالنسبة لمن يظن فيها النشوز والانحراف ، وبها كان الوعظ والتأديب الذى يجرى فيها بين الرجل وأبنائه : « فان اطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا » . وكان اذا ما اشتد النشوز ، ووصل الى الشقاق والخلاف الحاد ، انتقل العلاج من التأديب الذى يباشره الزوج الى التحاكم عند الأهل والاقاربه

الذين يهمهم شـأن الزوجين ، ويعز عليهم أن تتدهور الأسرة ، ويتشرد الأطفال .. وبقدر نية المحكمين ، وإخلاصهم فى ارادة بعث الحياة الطيبة بين الزوجين ، يسـدد الله خطاهم ، ويمنحهم من الوسائل ما يعيدون به الى البيت هدوءه واستقراره .

« وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ، ان يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما ان الله كان عليما خبيرا »

الربع الرابع :

الاحسان فى كل شىء

(*) الكلام فيه يتجه الى حفز النفوس نحو العمل بالأحكام التى بينتها السورة فيما يختص باليتامى والأسر وتكوين البيوت ، وذلك عن طريق التوجيه الى الاحسان العام ، والى ان سعادة المؤمن ليست معقودة بالاحسان الى أسرته وأقاربه فقط ، وانما ترتبط بالاحسـان الى كل ما يحتاج الى الاحسان .

ومن هنا أمر بالاحسان فى عبادة الله وهى أصل الخير كله ، والاحسان فيها افراده بالعبادة والتقديس ، دون أن يكون لغيره شركة ما فيما هو من خصائص الألوهية ، ثم ذكر الاحسان الى الوالدين لأنهما عماد الأسرة ، وفيهما يشب المرء على الاحسان ، ثم يمتد الاحسان منها الى الأقارب والجيران والأصحاب ، والى كل أرباب الحاجات ، وبهذا ترتبط وحدات الأمة على أساس من الرحمة ، وتصبح تلك الوحدات أسرة واحدة ، متعاونة فى السراء والضراء فيتحقق الرحم الانسانى العام الذى افتتحت بتقريره بين الناس ، ولفت النظر اليه ، سورتنا الكريمة .

ثم تشير الآيات الى ان التقصير فى هذا الحق الاجتماعى شأن صنفين من الناس : صنف يختال ويتكبر ولا يرى لغيره حقا عليه ، فيبخل بنعمة الله على عباده ، وبذلك يشيع خلق البخل بين الناس ، فيبخلون كما يبخل ، ويتقطع ما بينهم من صلات ، وتحدث بينهم الضغائن والأحقاد : « الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون

(*) الآيات من ٣٦ الى نهاية الآية ٥٧ من سورة النساء .

ما آتاهم الله من فضله » . وصنف يتعاظم على الناس فيحسن اليهم ، ولكن ابتغاء مدحهم اياه ، وتعظيمهم له ، دون أن يدفعه الى ذلك شعور بحق ، أو ايمان بالله : « والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر » . ثم يسجل القرآن على هذين الصنفين ، ان الذى أغراهم بالبخل والرياء على هذا الوجه ، الذى يدل على حرمان النفس من الفضيلة ، انما هو الشيطان ، منبع الشر والرذيلة : « ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا » ثم تثير الآيات عجب الناس من هؤلاء فى اعراضهم عن الايمان بالله واليوم الآخر ايمانا يدفعهم الى القيام بالحقوق ، والاخلاص فى أدائها على وجه يغرس الفضيلة فى نفوسهم ، ويكفل لهم ثواب الله ورضاه ، مع انهم لو أخلصوا لما فاتهم شىء مما يحبون ، ولحصلوا فى الآخرة على النعيم الدائم والجزاء الحسن : « ان الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها » ، وكيف يكون حال هؤلاء يوم يجمع الله الناس ويشهد على كل أمة رسولها ؟ .. « يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا » .

علاج لادواء النفوس

ثم تسوق الآيات للمؤمنين علاجا من شأنه اذا قاموا على وجهه هذب نفوسهم ، وطهر قلوبهم ، فلا تعرف الى البخل ولا الى الرياء سبيلا ، ذلكم العلاج هو « الصلاة الخاشعة » عصمة الانسان من الفحشاء والمنكر « ان الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا ، واذا مسه الخير منوعا الا المصلين » . وأرشدهم فى ذلك الى تدبرها واستحضار عظمة الله فيها : « لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » . ثم تلفت الأنظار الى تطهير الظاهر حتى تلتقى طهارته مع طهارة الباطن : « وان كنتم جنبا فاطهروا » . وتذكر بنعمة الله عليهم فى الاكتفاء بالطهارة الرمزية ، وهى طهارة التيمم حين لا يقدرون على الطهارة الحقيقية ، وهى طهارة المـــاء . ثم تعرض الآيات بعد ذلك لحالة طائفة يعلم المؤمنون من أمرها ما يعلمون ، من الاعراض عما آتاها الله من أحكام وهداية ، وتحريف الكلم عن مواضعه ، واتخاذها لأنفسها من عناوين التزكية كأبناء الله وأحبائه ، وما يوهمون به أنهم فى غنى عن العمل بنصيبهم من كتاب الله وشرعه ، وفى اثناء ذلك تهددهم الآيات بقوله تعالى :

« يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على ادبارها ، أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت » .

هذا ما يلفت الله نظر المؤمنين اليه فى وجوب الأخذ بأحكامه ، وعبرتنا منه أن نرتفع بأنفسنا عن مواطن الذين يبخلون والذين يراءون ، ونعصم أنفسنا عن مسايرة هؤلاء فى تحريف الكلم عن مواضعه ، واشتراء الضلالة ، وتزكية النفس بمجرد النسبة الى الرسول أو الاسلام ، فعلى هؤلاء الذين ينتمون الى كتاب الله ، ويقولون نحن مسلمون لله ، أن يتدبروا هذا التهديد الالهى ، وان يعلموا أن هذا التهديد سنة الله مع كل من اعرض عن ذكره ، ونبذ شرعه وأحكامه ، وحرف كلمه عن مواضعه ، ثم عليهم أن يستمعوا الى وعيد الله لمن حاد عن طريقه : « ان الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا ، كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب » . ثم الى وعده لمن التزم حدوده وأحكامه : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلا ظليلا » ..

الربع الخامس :

الامانة والعدل

(*) والكلام فيه لا يزال فى التشريع الداخلى الذى يحفظ على الأمة استقرارها وهدوءها . وقد ارشدت الآيات هنا الى أن اساس الانتفاع بهذه الاحكام أمران لا تسلم أمة ولا تسعد الا بمراعاتهما والحرص عليهما ، وهما أساس الحكم الصالح ، وسبيل الحياة الطيبة : اداء الأمانات الى أهلها ، والعدل فى الحكم بين الناس . والأمانة اسم للحق الذى أودع عند الانسان ، وكلف حفظه ليوصله الى صاحبه الذى يملكه ، أو الذى ينتفع به ، فيشمل المال ، واداؤه تسليمه كاملا غير منقوص ، والعلم ، واداؤه تعليمه على وجهه الصحيح ، والرأى ، واداؤه ابداؤه لمن يحتاج اليه ، أو لمن

(*) الآيات ٥٨ الى نهاية الآية ٧٣ من سورة النساء .

بيده التنفيذ ؛ وأداء الأمانات يتناول تيسيرطرق الوصول اليها ، كنشر الكتب المهدية التى ينتفع الناس بها فى دينهم ودنياهم ، وتنقية التعاليم الدينية من البدع والخرافات والأساطير التى تفسد على الناس دينهم وتصورهم ، كما يتناول تنظيم الطرق الزراعية ؛ وحفر الترع ، وانشاء المصانع ؛ كل ذلك مما يجب على الراعى تسهيله للرعية وهو امانة فى عنقه . .

اما العدل فى الاحكام فيرجع الى تحرى الحق بوسائله ، والبعد عن الهوى والشهوة ، وقد أرشدت الآيات الى ان سبيل الأمانة والعدل انما هو طاعة الله المشرع ، والرسول المبين ، وأولى الامر ، القائمين على حدود الله ، الذين هم من الأمة ، يحسون احساسها ، ويهتمون بخيرها وسعادتها « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » .

ثم تلفت الآيات أنظار المؤمنين الى طائفة تنبت فيما بينهم ، تظهر ايمانها بشخصية الأمة ، وقلوبها تنكرها ، يزعمون انهم يؤمنون بدين الأمة وقانونها ، وهم فى الواقع ينطوون على ارادة التحاكم الى غير دينها الحق تبعا لشياطينهم ، وسيرا مع اهوائهم : « واذا قيل لهم تعالوا الى ما انزل الله والى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا » .

* * *

وهذه نابتة السوء ، وجرثومة الشر ، يختبر الله بها كل أمة ، فاحذروهم واحذروا طريقتهم التى تفسد عليكم امركم : « أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا » .

الا وان هؤلاء لا يقام لهم وزن عند الله ، ولا تحفظ لهم كرامة الا اذا تابوا وطهروا أنفسهم من رجس النفاق ، وتعاونوا معكم على البر والتقوى ، وخضعوا لاحكام الله ، واتخذوها حكما فيما ينشأ بينهم من خلاف أو يعرض لهم من حاجة : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » .

ثم تلتفت الى أولئك المنحرفين وترشدهم الى ما فيه خيرهم من

الامتثال لما يلقى عليهم من احكام الايمان ، والانتفاع بثمراتها الطيبة : « ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا . واذا لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما ولهديناهم صراطا مستقيما » . ثم تختتم الآيات هذا التشريع الداخلى الذى تحدثت فيه من أول السورة ، تختمه بوعد كريم لمن يطيع الله والرسول فيه ، وتعدهم برفع مكانتهم الى مستوى الذين انعم الله عليهم من عباده الاخيار « النبيين ، والصديقين ، والشهداء ، والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا » .

الاستعداد للامن الخارجي بعد الداخلى

ثم تأخذ الآيات فى الارشاد الى ما يتوقف عليه استقرار الأمة من جهة خارجيتها ، فتأمر بأخذ العدة والاستعداد الدائم لمكافحة العدو الطارىء عليها ، المغتصب لها ، وتأمر بتطهير الأمة من عناصر الفساد والتخذيل التى تنبت منها وفيها ، وتربط حبالها بحبال أعدائها ، وتعمل فى سرها على تمكين العدو من بلادها .

ثم تعرض الآيات فى سبح طويل للتعامل فى سبيل الله وفى سبيل المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، وترشد الى ما يتوقف عليه النصر ، معلية فى ذلك كله شأن الذين يقاتلون فى سبيل الله ، الذين يبيعون الحياة الدنيا بالآخرة ، ويضحون بأنفسهم وأموالهم فى اعلاء كلمة الحق ، ورد كيد الغاصبين المبطلين : « يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا وان منكم لمن ليبطئن فان أصابتكم مصيبة قال قد انعم الله على اذ لم اكن معهم شهيدا ، ولئن اصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة ، يا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما » .

سورة الأنعام

الربع السادس :

تعامى المعاندين عن الحجج

(*) قال تعالى : « ولو اننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون » .

هذا هو الربع السادس من سورة الأنعام ، وسورة الأنعام ، هى سورة الحجاج العقلى بين الحق والباطل ، وقد سلكت فى حجاجها طريق الحكاية والتلقين ، تحكى بكلمة « قالوا » أو نحوها شبهة المبطلين ، وتلقن بكلمة « قل » ونحوها الحق وحجته . ومن شأن المبطلين فى كل زمان ومكان ، أن يتعاموا عن حجة الحق الواضحة ، ويلتمسوا ـــ تبريرا لعنادهم واعراضهم ـــ حجة ليؤمنوا بها ، ويقسموا أنهم ان جاءتهم حجة ظاهرة ليؤمنن بها . والواقع أن كفر المعاندين لم يكن ناشئا عن عدم الحجة ، وانما هم بذلك لاتنفعهم حجة ، ولا يؤمنون ببرهان ، وانه مهما سيق اليهم من حجج وهيىء لهم من دلائل فانهم لا يؤمنون لا اذا سلكوا سنة الله فى ايمان من يؤمن فطهروا قلوبهم من الحقد والحسد ، واقبلوا على النظر البرىء فيما يدعون اليه « ولكن أكثرهم يجهلون » يتمكن الجهل والسفه من قلوبهم فيمنعهم أن يسلكوا طريق الهداية والايمان .

وان واجب اهل الحق بالنسبة اليهم أن يعرفوا أن عداوتهم للحق ناشئة من نفوسهم وليست ناشئة من عدم الحجج المقنعة ، فلا يهتموا بشـــأنهم ، ولا يكترثوا بما يقترحون من حجج وآيات : « وما يشعركم انها اذا جاءت لا يؤمنون » .

(*) الآيات من ١١١ الى نهاية الآية ١٢٦ من سورة الأنعام .

واجب الدعاة

وليعلم اهل الحق ان سنة الله جرت مع كل نبى وكل داع ؛ ان يثبت لهم أعداء يقفون أمام دعوتهم ويعملون جهدهم فى صرف الناس عنها وما على هؤلاء الدعاة الا ان يصبروا ويصابروا ، ويعصموا أنفسهم واتباعهم من الاغترار بزخرف قولهم وفاسد وحيهم حتى يأتيهم نصر الله ، وتكون العاقبة للصابرين « وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الانس والجن » ، ولقد كان فى قدرة لله ان يسلبهم قوة المعارضة ، ولكن لم يشأ ذلك تحقيقا لحكمة الابتلاء ، وتصحيحا لقانون المحاسبة والجزاء « ولو شاء ربك ما فعلوه » ..

واذن فيجب على دعاة الحق ان يتركوهم وان يعتصموا بالحق الذى معهم وتشهد بصحته فطرهم وضمائرهم ، كما يشهد بصحته التاريخ الحق لاخوانهم السابقين : « افغير الله أبتغى حكما وهو الذى انزل اليكم الكتاب مفصلا ، والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين » .

فليعتصموا بحقهم ، وليثقوا بسنة الله معهم فى النصر والتأييد ، وبسنته مع أعدائهم فى الهزيمة والخذلان « وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته » وليحذروا الاستماع اليهم ، والتأثر بما ينفثون من سموم : « وان تطع اكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله » ، « وان الشياطين ليوحون الى اوليائهم ليجادلوكم ، وان اطعتموهم — فى عقيدة او عمل — انكم لمشركون » .

أعداء الحق

وقد جرت سنة الله أيضا ان يجعل أعداء الحق فى كل امة « أكابر مجرميها » أرباب الرئاسة والجاه والسلطان ، وانهم هم الذين يضطربون لصوت الحق ، ويخافون سطوته ، وهم لذلك يعملون جهدهم فى وضع العقبات ، وفى الكيد لأرباب الحق ، ولكنهم فى سنة الله لا يمكرون الا بأنفسهم وسيرون حتما ذلتهم وعزة الضعفاء حينما تدور عليهم الدائرة ، وينزل بهم القضاء على أيدى هؤلاء الضعفاء : « وكذلك جعلنا فى كل قرية اكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون الا بأنفسهم وما يشعرون » .

بهذا مضت سنة الله فى الاولين ، وتمضى به فى الآخرين ، وبه

بـحل الله الصغار والذل على المبطلين ؛ الذين يكيـدون للحق ويصرفون النـاس عن الحق « سيصيب الذين أجرموا صـغار عند الله وعذاب شديد بمـا كانوا يمكرون » ؛ أما من يطهر قلبه من دواعي الاجرام ونوازع النفس الخبيثة ؛ ويستقبل الحق بقلب نقي فانه يدخل في رحمة الله ؛ وينعم بفضـله وهدايته .

« وهذا صراط ربك مستقيما قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون » .

الربع السـابع :

مهتـد وضـال

(*) يواصل هذا الربع الحديث عما يكون من شـأن المهتدين الذين طهرت قلوبهم من الموروثات الفاسـدة ، ونظروا في أدلة الحق . فانشرحت به صدورهم وسلكوا طريق الله المستقيم ؛ ومن شـأن الضـالين . الذين تحجرت قلوبهم فلم ينفذ اليهـا شعاع الحق ؛ وظلوا في كفرهم يعمهون ؛ فيذكر بالنسـبة للمهتدين « لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون » .

ويصور بالنسبة للضـالين بعض مواقف الحشر والحساب ، التي يتجلى فيهـا أن سبب ضـلالتهم هو فتنة بعضهم ببعض ، واستجابة الاتبـاع لاغراء المتبوعين ؛ ويتجلى فيها تحسر الاتباع على السير وراء المتبوعين ، والتي تقطع عليهم فيهـا اعذارهم ، ويذكرون برسل الله وآياته ، فيشـهدون على أنفسهم بالكفر ، ويعترفون أن الحيـاة الدنيـا هي التي غرتهم ، وصرفتهم عن الايمـان بالرسل ، وعن النظر في الآيات : « يا معشر الجن قد استكثرتم من الانس ، وقال أولياؤهم من الانس ربنـا اسـتمتع بعضـنا ببعض » ، « يا معشر الجن والانس ، الم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقـاء يومكم هذا ، قالوا شـهدنا على أنفسـنا » .

شبيه الشيء منجذب اليـه

وعندئذ يصـدر على الجميع ، ضالين ومضلين : « النـار

(*) الآيات من ١٢٧ الى نهاية الآية ١٤٠ من سورة الأنعام .

مثواكم خالدين فيهـا الا ما شـاء الله » . وفيما بين هذا التصوير الآخـذ بالنفوس والذى يعبر تعبيرا قويا عن علاقـة الاتبـاع بالمتبوعين فى الدنيـا والذى يوضح أن ضـلال الفريقين انمـا جاءهم من قبل انفسهم ، سيرا وراء الهوى والشهوة ، لا من قبل الله بحكم قاهر لا مفر منه .

فيما بين هذا التصوير ، تقرر الآيات سنتين من سنن الله فى خلقه ، تختص احداهمـا بالضـلال والاضلال ، وهى أن النفوس المتشابهة فى عوامل الأعراض عن الحق يميل بعضها بحكم المشاكلة الى بعض ، تلتقى رغباتهم واهواؤهم ، فتلتقى عقائدهم وخططهم، فيتعاونون ، ويتناصرون ، ويتبع بعضهم بعضـا « وكذلك نولى بعض الظالمين بعضـا بما كانوا يكسبون » .

الجزاء بعـد الانذار

وتختص السـنة الأخرى بشأن الله فى الحسـاب والجزاء ، وهى انه ليس من شأنه سبحانه أن يعذب الأمم بما يشيع فيهـا من مظالم ، وينتهك فيهـا من حق ، قبل ان ينذرهم ويرشدهم ، ويبعث فيهم من يدعوهم الى صراطه المستقيم ، لئلا تكون لهم حجة ، ويقولوا : « ما جاءنا من بشير ولا نذير » ، « ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون » .

سر التكليف والاختيـار

ثم تبين الآيات أن هذه السنن التى يعـامل الله بهـا عباده ــ فى الضـلال والهدى ، والانذار والتبشير ، والحساب والجزاء ــ لم تكن ليسـد بهـا حاجة له سبحانه ، فهو الرب الغنى الذى يحتـاج اليه كل من سـواه ، وانما هى من رحمته بعبـاده ليظهر فيهم المحسن من المسىء ، ويمتـاز بهـا الخبيث من الطيب، ويحظى كل عامل بنتيجة عمله ، ولو شـاء سبحانه لأذهب العصاة المـارقين ، وأتى بقوم يحبهم ويحبونه ، يطيعون ولا يعصـون ، ولكن قضت حكمته بتنظيم الكون على هذه السنن ، تحقيقـا لقاعدة التكليف والاختبـار ، واظهارا لفضـل العقل الذى فضـل به الانسـان على غيره من سـائر المخلوقات . .

اذا فسدت العقيدة ساء السلوك

ولما كانت العقائد الفاسدة يتبعها دائما احكام فاسدة وتصرفات منحرفة ، أخذت الآيات تبكت الضالين فى عقائدهم ، على بعض تصرفاتهم التى كانت اثرا من آثار كفرهم بالله ، واعراضهم عن شرائعه واحكامه ، فذكرت تصرفهم بالتحليل والتحريم فى الحرث والانعام ، تصرفا لم يأذن به الله ، ولم يكن فى طبائع الأشياء ما يسمح به أو يبرره : جعلوا منها نصيبا لشركائهم ، ونصيبا لله ، وبعد هذا يأخذون مما جعلوه لله ويضيفونه لما جعلوه للشركاء ، وخصصوا بعض الأنعام والحرث لمن يشاءون ، وحرموها على من يشاءون .. حرموا ظهور بعض الأنعام ومنعوا أن تركب أو يحمل عليها وأكلوا ما ذبحوه باسم الأصنام والشركاء ، وحرموا ما ذكر اسم الله عليه ، وهكذا حتى امتد سوء تصرفهم الى أولادهم فتقربوا بقتلهم الى المعبودات .

وعبرتنا فى ذلك : أن التشريعات والتصرفات التى لا تؤسس على الايمان بالله وشرائعه لابد أن تكون عاقبة أهلها الخسران والدمار ، فليعتبر هؤلاء الذين يجعلون لغير الله نصيبا فيما خلق والذين يحلون ما حرم الله ويحرمون ما أحل ابتغاء شهوة أو تقليد ، والذين يعملون جهدهم فى افساد نطف النسل الذى به يعمر الكون ، وتظهر به أسرار الله فى خلقه ، وليقرءوا جميعا قوله تعالى :

« قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين » .

الربع الثامن

نعم الله دلائل وحدانيته

(*) وفى هذا الربع تعود الآيات فتذكر ادلة التوحيد الماثلة فى نعم الله التى يتقلب فيها عباده ، والتى يسدون بها حاجاتهم ، ويمتعون

(*) الآيات من ١٤١ الى نهاية الآية ١٥٠ من سورة الانعام .

بلذائذها أنفسهم .. يذكر من ذلك الزروع ويذكر الأنعام ، ويلفتهم الى ما فى الزروع والأشجار من ثروة نباتية ينتفعون بأخشابها فى مهامهم ، وبثمارها فى طعامهم ، والى ما فى الأنعام من ثروةحيوانية، لهم فيها دفء ومنافع ومنها يأكلون : « وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات » . « ومن الأنعام حمولة وفرشا ، كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عـــدو مبين » . كلوا من الأنعام ، كما تأكلون من الزروع والثمار فالكل مما أنعم الله به عليكم ، وأحله لكم ، وان التفريق بين ما أحل الله بتحليل البعض وتحريم البعض ، خروج عن قضية التسوية بين المتماثلات فى الطبيعة والحكم ، وافتراء على الله بالتحليل والتحريم ولا يملك التحليل والتحريم سواه « قل الذكرين حرم أم الانثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ، أم كنتم شهداء اذ وصاكم الله بهذا »

اربعة اطعمة محرمة

لم يحرم شيئا من هذا ، وما كنتم شهداء اذ حرم . وانما هو افتراء وتضليل « فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم » . ان الله لم يحرم شيئا من الزروع ، ولا من الأنعام ، وانما الذى حرم ان يطعم هو الميتة ، والدم المسفوح ، ولحم الخنزير ، والفسق الذى أهل به لغير الله . وقد حصر الله ما حرم من طعام فى هذه الأصناف الأربعة ، وقد جاء ذلك الحصر فى سورتنا بقوله : « قل لا أجد فيما أوحى الى محرما على طاعم يطعمه الا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير ، فانه رجس ، أو فسقا أهل لغير الله به » وجاء ذلك الحصر مرة أخرى فى سورة النحل بصيغة : « انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به » . وسورة الأنعام،وسورة النحل مكيتان ،ثم جاء ذلك الحصرمرةثالثة فى سورة البقرة على نحو ما جاء فى سورة النحل « انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله » ثم جاء مرة رابعة فى سورة المائدة : « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به » وكان ذلك بعد قوله : « أحلت لكم بهيمة الأنعام الا ما يتلى عليكم » . وسورة البقرة ، وسورة المائدة مدنيتان . والمائدة بعد ذلك من أواخر القرآن نزولا . ومن هنا يتبين ان حصر المحرمات من الطعام فى هذه الأربعة ، هو ظاهر القرآن الكريم .

شبهتان مردودتان

وتعرض الآيات بعد هذا الى شبهتين ، كان يتذرع بهما القوم فى أصل التحريم ، وفى عدد المحرمات ، فكانوا يقولون : لو كان دين الله حصر التحريم فى هذا الأربعة فكيف حرم على بنى اسرائيل كل حيوان ذى ظفر ؟ وحرم عليهم بعض شحوم البقر والغنم ؟ .. ويجيب الله عن هذه الشبهة بأن تحريم ذلك على بنى اسرائيل لم يكن شرعا وانما كان ابتلاء وعقوبة «كل الطعام كان حلا لبنى اسرائيل» « ذلك جزيناهم ببغيهم وانا لصادقون » . وكانوا يقولون فى أصل التحريم والشرك ، وما ورثوا عن الآباء من عقائد وشرائع فاسدة : « لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء » يريدون ان الله رضيه وأمر به ؛ أو انهم كانوا مجبورين عليه بقهره الذى لا يستطيعون التخلص منه ، وتلك شبهة لا تزال عالقة بالنفوس يعتذر بها المفسدون ، ويجادل بها المبطلون ، والله يجيب عنها بأن أمثالهم السابقين كذبوا الرسل فأشركوا وحرموا ، واعتذروا بالمشيئة كما يعتذرون ، فعاقبهم الله على شركهم ، ولم يكترث باعتذارهم ، فلو كان حقا ما قالوا لما عاقبهم « كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا » ثم طالبهم بما يثبت رضا الله بالشرك والتحريم أو بما يثبت قهرهم على ماهم عليه : « قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن ، وان أنتم الا تخرصون » .. واذ لا علم عندكم فلا تتبعوا أهواءكم واتبعوا ما أنزل الله اليكم : « قل فلله الحجة البالغة » ..

الانسان مختار غير مقهور

كلفكم ووعد وأوعد ، وترككم كما خلقكم ، مختارين غير مقهورين ولا مجبورين ، ليكون للمحسن احسانه ، وللمسىء اساءته ، ولو شاء لقهركم على الطاعة فلا تقدرون على العصيان ، أو قهركم على العصيان فلا تقدرون على الطاعة ، وعندئذ لا تكونون من النوع الذى أعده للخير والشر ، وهداه النجدين .

ثم يستنهض همتهم فى استحضار من يشهد لهم بما يقولون ، ويحذر النبى صلى الله عليه وسلم واتباعه من السير فى طريق شبههم الضالة :

« ولا تتبع اهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون » .

الربع التاسع :

(*) عرضت سورة الأنعام لكثير من أدلة التوحيد والرسالة والبعث ، ودفعت كثيرا من الشبه التى كان يثيرها خصوم الدعوة عليها وعلى الدعاة ، وبينت فى سبيل تسلية الرسول وصحبه جملة من سنن الله فى الاضلال والهداية ، وفى معارضة الباطل للحق حتى أوفت فى ذلك كله على الغاية ، وأخيرا ختمت بهذا الربع : « قل تعالوا اتل ماحرم ربكم عليكم الا تشركوا به شيئا،وبالوالدين احسانا»... الآيات . فركزت الدعوة فى أمهات الفضائل ، وأسس الخير للفرد والجماعة ، ففى جانب العقائد :

« الا تشركوا به شيئا » ، فله وحده العبادة ، وبه وحده الاستعانة ، ومنه وحده الخوف والرجاء ، وله وحده التحليل والتحريم .

وفى جانب العمل :

« وبالوالدين احسانا » . فمنهما نشأ الانسان وفى احضانهما تربى ، والاحسان اليهما اعتراف بالنعمة وتقرير للجميل : « ولا تقتلوا أولادكم من املاق » . فالولد ثمرة الحياة ، وحلقة فى سلسلة النوع الانسانى ، وفى حكم قتلهم العمل على منعهم حيث لا ضرورة تدعو اليه ، واهمال تربيتهم ، أو تنشئتهم على بغض بلادهم ودينهم ..

« ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق » . فالاعتداء عليها هدم لعمارة بناها الله ، واعتداء على خلافة أرادها الله . نعم . أهدرت عصمة النفس البشرية اذا اعتدت على أخت لها بريئة فقتلتها ، أو على نظام الله العام فحاربته ، أو على جماعة المسلمين فناصبتها العداء .

« ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى احسن حتى يبلغ اشده ، واوفوا الكيل والميزان بالقسط » . فالأموال صنو النفس ، وعنصر

(*) الآيات من ١٥١ الى آخر سورة الأنعام .

الحياة . والاعتداء عليها اعتداء على الحياة ، وقد خص بالذكر « الأكل » عن طريق استضعاف المالك كاليتيم ، وعن طريق الاختلاس فى المعاملات التى لابد للناس منها ، وهو طريق البيع والشراء : « ويل للمطففين .. » .

وفى جانب القول :

« واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا » . العدل ، والوفاء بالعهد قطبا النظام ، فلا عمران مع الظلم ، ولا نظام مع المحسوبية ، ولا ثقة مع نقض العهود . واهمال شرع الله نقض لعهد الايمان ، والاخلال بالالتزامات نقض لعهد الانسان . وتبديل حكم الله نقض لعهد الله ولا حياة لأمة عرفت بنقض العهود ..

« وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » جمع الكلمة وارتباط القلوب حول تركيز شرع الله اعتصام بحبل الله ، وسبيل للخير والفلاح . والتفرق غول الأمم ، ومورد التهلكة .

وصـــايا الهيـــة

تلك وصايا الله ، بعث بها كل رسول ، وانزل بها كل كتاب .. فهى شرعه الدائم ، وصراطه المستقيم ، جاء بها كتاب موسى ، وجاء بها القرآن الكريم ، ليؤكد اللاحق السابق : « ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذى أحسن » ، « وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون » . والاعراض عنه تكذيب بآيات الله وسبيل لغضب الله ، والتفرق فيه تضييع لأمانة الله : « ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء ، انما أمرهم الى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون » .

ثم تختم السورة بأمرين عظيمين ، يرجع احدهما الى تقرير الدعوة فى نفسه صلى الله عليه وسلم تقريرا يحس به وجدانه ، ويتجلى به ظاهره ، ويمتلىء قلبه ببرهانه المادى والتاريخى : « قل اننى هدانى ربى الى صراط مستقيم ، دينا قيما ملة ابراهيم » « قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين » ، « قل أغير الله ابغى ربا وهو رب كل شىء » .

وتقرير الدعوة على هذا الوجه له من الأثر فى قوة الداعى ، وفى تبديد شبه المعارضين ما يركز للحق سلطانه ، ويرمى بجبهة المعارضة الى مكان سحيق ..

أما الخاتمة الثانية والأخيرة فهى ارشاد الانسان الى مكانته التى أعدها الله له فى هذه الحياة ، تلك المكانة التى تمثلها خلافته فى الأرض ، وان الله جعل عمارة الكون تحت يده وبعمله ، تتعاقب عليه أجياله ، ويقوم اللاحق فى ذلك مقام السابق ، وان الله سبحانه قد فاوت فى المواهب ليظهر من يحسن فى الخلافة فيكون له من الله مغفرة ورحمة ، ومن يسىء فيكون له من الله شديد العقاب : « وهو الذى جعلكم خلائف الأرض،ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم ، ان ربك سريع العقاب وانه لغفور رحيم » .

سورة الأعراف

الربع الأول :

مهمة التنزيل المكى

(*) سورة الأعراف أول سورة طويلة نزلت من القرآن الكريم ، وأول سورة عرضت للتفصيل فى قصص الأنبياء ، وهى أطول سورة فى المكى ومهمتها هى مهمة المكى : تقرير التوحيد .. ربوبية ، وألوهية ، وتشريعا ، وتقرير البعث والجزاء ، وتقرير الوحى والرسالة . وتلك هى أصول الدعوة الدينية التى كانت لأجلها جميع الرسالات الالهية ..

واجب الداعى وحقه

نوهت بشأن الكتاب ، وارشدت الى الغاية التى لأجلها أنزل ، والى ما يجب على الرسول بصفته الداعى أن يطرده عن قلبه حتى يقوى فى الدعوة ويقوم بالمهمة التى القيت على كاهله : « كتاب أنزل اليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين » ، فعلى دعاة الخير أن يتسلحوا بالهدوء والاطمئنان . وعلى الناس أن يوفروا عليهم راحة الضمير ، والا يضعوا أمامهم العقبات التى تحرج الصدور ، وتقبض النفوس ، وقد أجملت السورة دعوتها الى هذه الأصول فى آية واحدة ، تحمل الأمر بناحية الايجاب ، وتحمل النهى من ناحية السلب ، فطلبت اتباع ما أنزل من عقائد وأخلاق وأعمال ، ونهت عن اتخاذ أولياء من دون الله ، يرجع اليهم فى التحليل والتحريم ، أو يقصدون بالعبادة والتقديس ، أو يعتمد عليهم فى الشفاعة والمغفرة : « اتبعوا ما انزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء » .

ثم سلكت سبيل الانذار : فأنذرت بما أصاب الأمم السابقة حينما كذبت رسلها ، وعتت عن أمر ربها : « وكم من قرية أهلكناها

(*) انظر أول الأعراف الى نهاية الآية ٣٠ .

فجاءها بأسنا بياتا او هم قائلون » . وخوفت بما اعد للمكذبين يوم ان يسألوا عما انزل اليهم ، ويوم ان يسأل عنهم المرسلون ، يوم الوزن الحق ، يوم يثقل الميزان او يخف : « فلنسألن الذين ارسل اليهم ولنسألن المرسلين »،« والوزن يومئذ الحق » ثم سلكت سبيل التذكير بالنعم ، فلفتت الأنظار الى نعمة تمكين الناس فى الأرض ، واتخاذهم اياها وطنا مزودا بضروب المنافع الشتى ، يستقلون فيه بالحكم ، والانتفاع بموارده الظاهرة الباطنة لا يشاركهم فيه أحد ، ولا يخرجهم منها انسان « ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش » .

ولفتت الأنظار الى نعمة خلقهم من أب واحد ، يجمعهم به رحم واحد ، وبه كانوا خلفاء فى الأرض وعمارة الكون ، وفضلهم بذلك على كثير من خلقه . وهنا ذكرت السورة خلق آدم وقصته مع الملائكة ، من أمرهم بالسجود له ، اظهارا لفضله ، وتنويها بما يكون له من شأن ، بعد أن قالوا : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » .

تحذير من ابليس وجنده

ثم ذكرت موقف ابليس من آدم وكيف أبى واستكبر ، وتعالى وتعاظم وقال : « انا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين » . ومن هنا ظهر للانسان عدوه المبين ، الذى ابتلاه الله به فى هذه الحياة ، والذى يجب عليه — ليسلم من شره ويسعد ، ويحصل على رضا مولاه ، ويحقق حكمة الله فى خلقه — أن يتخذه عدوا ، يتحسس نواياه ، ويعترف وسوسته ويكافحه بكل ما أوتى من قوة ، يعرف انه قد نصب له الشباك وقعد له بالمرصاد ، ورسم خطته فى اغوائه والكيد له : « لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم ولا تجد اكثرهم شاكرين » . .

بصرنا الله بهذه العداوة ، وحذرنا منها « اخرج منها مذموما مدحورا لمن تبعك منهم لاملأن جهنم منكم أجمعين » . ثم يذكرنا بما كان من أثر عداوته لآدم أبى البشر : كان آدم وزوجه فى رغد من العيش فابتلاهما الله بتكليف خاص ، فوسوس لهما الشيطان ليظهر ضعفهما ، فينحرفا عن التكليف ، فيقعا فى شر المخالفة ،

فيكون لهما من الله جزاء المخالفين « فوسوس لهما الشيطان » . « وقاسمهما انى لكما لمن الناصحين فدلاهما بغرور » ، ووقعا فى المخالفة ، ثم تنبها الى كيد الشيطان ، وقالا : « ربنا ظلمنا انفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » .

وهكذا يجب ان يربط أولاد آدم نسبهم بآدم ، فيعرفوا — كما عرف — كيد الشيطان ، ويطهروا أنفسهم — كما طهر — من وسوسته واغوائه ، فقد خلقهم الله فى الأرض ، وابتلاهم بالشهوات ، وتعارض الرغبات ، وقام الشيطان بينهم ، يضل ، ويكيد ، ويفرق ، ويغرى ، ونظم حياته على قوى الافساد ، فليحذروه ، وليتقوا شره ، وليعتصموا بدعوة الله الواقية ، لعلهم يرحمون « اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى حين . قال فيها تحيون وفيها تموتون ، ومنها تخرجون » ..

وتخلص الآيات بعد ذلك الى نداءات أربعة تتجه بها الى الناس بوصف البنوة لآدم تذكرهم بنعم الله عليهم ، وتحذرهم فتنة الشيطان ، وترسم لهم طريق الخير والفلاح فى الدنيا والآخرة .

الربع الثانى :

الانسان بين الخير والشر

(*) قص الله علينا نبأ آدم مع ابليس ، وكان مغزاه ان الانسان له جانب خير يتلقى به أمر ربه ويمتثله وينفذه ، فيصل الى سعادته والى رضاه ، وله جانب شر ، به يستجيب لوسوسة الشيطان واغوائه ، فيبعد بذلك عن سعادته ، ويصيبه غضب الله . وأولاد آدم من آدم ، تكوينهم من تكوينه واستعدادهم من استعداده فلهم كأبيهم جانب خير يقودهم الى اتباع أوامر الله ، وجانب شر يوقعهم فى المخالفة والعصيان ، وابليس الذى نشأ على عداوتهم يغريهم ويوسوس لهم كما أغرى أباهم ووسوس له ، ويحاول أن يكشف لهم من عورات وسوءات ، كما كشف لأبيهم من عورات وسوءات .

(*) الآيات من ١٢٧ الى نهاية الآية ١٤٠ من سورة الأنعام .

لهذا وجه الله الى ابناء آدم ، بعد أن بين لهم عـــداوة ابليس لأبيهم ، اربعة نداءات متتالية بوصف البنوة لآدم « يابنى آدم » يرشدهم فيها الى نعمته عليهم ويحذرهم بها من عدوهم ، ويرشدهم الى ان هدايته لهم والتمسك بها هى وحدها سبيل عصمتهم من الوقوع فى كيده ، ويذكرهم بأن الحرمان من النعيم ، الذى أصاب والديهم ، انما كان بنسيانهما نعمة الله ، وباستجابتهما للشيطان ، واغفالهما هداية الله .

امتن عليهم بأن هيأ لهم سبيل الحصول على الملبس الذى به يستترون عورتهم ويريشون به أنفسهم فى مناسبات التجمل ، ولفت أنظارهم الى أن تقوى الله فى الانتفاع بنعمة اللباس على الذى رسم الله هو أساس الرضا ، واساس الشكر « يا بنى آدم قد انزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم وريشا ، ولباس التقوى ذلك خير » .

وفى تحذيرهم من فتنة الشيطان التى فتن بها والديهم من قبل ، ووقعا بها فى المخالفة والعصيان : « يابنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج ابويكم من الجنة » . وفى سبيل هذا يرشدهم الى ان عدم الايمان بالله والاعراض عن هديه هو الطريق الوحيد الذى به يتسلط الشيطان عليهم ، وينفذ منه الى قلوبهم : « انا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون » ، فيأخذون بهم الى طريق الشر ، ويخيلون لهم ان ما يفعلون من شر وفاحشة انما هو باذن الله وامره « واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها » . ثم يجىء النداء الثالث ، فيكشف عن المعنى الانسانى فى اللباس ، وانه من الزينه التى تحفظ على الانسان مكانته ، ويأمرهم باتخاذها فى المساجد وما يماثلها من المجتمعات ، ويرشدهم الى الاعتدال فيها ويضم اليها الأكل والشرب ، ويقول : « ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين » ..

وكما يحذر الاسراف ، يحذر الحرمان ، وينكر على الاشحاء أو المتنطعين حرمان أنفسهم من الزينة والطيبات من الرزق ، ويرشدهم الى ان الجدير بالتحريم وبتطهير النفس منه « الفواحش » التى تأباها الانسانية ، و « البغى » فى الأرض . و « الشرك » الذى لا تقوم له حجة ، ولا يوحى بفضيلة ، والقول على الله بغير علم ، وهو أصل الضلال ، والقضاء على شرائع الله واحكامه . وترشدهم

الى ان لكل أمة اجلا ، تحاسب بعده على ما اقترفت من المظالم والمآثم ، وينزل بها الجزاء الذى تستحق ، وانها لا تحظى بالنعيم بعد هذا الأجل الا اذا آمنت بالله وهداه ، واتقت حرماته ، واصلحت ما أفسدت او افسد الناس : « يا بنى آدم اما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى ، فمن اتقى واصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

حرمان أبدى

ثم تصور لنا الآيات بعد مشهدا من المشاهد الواقعية يوم الجزاء للمكذبين حتى يتضح الحق ، ويشهدون على انفسهم بالكفر والتكذيب ، وان اربابهم — الذين كانوا يدعون من دون الله ، وشفعاءهم الذين كانوا يعتمدون عليهم فى النجاة من عذاب الله — قد ضلوا عنهم وتبرءوا منهم ، وفى هذا المشهد يتخاصم التابعون والمتبوعون ، ويلقى كل منهم بالتبعة على صاحبه ، ويسجل الله على الجميع تابعين ومتبوعين ضالين ومضلين الحرمان الأبدى ، ويوصد فى وجوههم ابواب الرحمة ، ويصف تقلبهم فى طبقات الجحيم المستعرة : « كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى اذا اداركوا فيها جميعا قالت اخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار ، قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون » .

« لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط » .

« لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك نجزى الظالمين ».

نعيم دائم

وبجانب مشهد الظالمين المكذبين ، ترسم الآيات مشهد المصدقين المؤمنين صفاء للنفوس من الغل والحقد ، وحمدا على هداية الله ، وشكرا على نعمته : « ونزعنا ما فى صدورهم من غل تجرى من تحتهم الأنهار » ، « وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا ان هدانا الله » ، « لقد جاءت رسل ربنا بالحق ، ونودوا ان تلكم الجنة اورثتموها بما كنتم تعملون » ..

الربع الثالث :

محادثة بين فرق ثلاث

(*) يتحدث هذا الربع عن مشهد آخر ، تبدو فيه ألوان جديدة من صور التحية والتكريم للمؤمنين ، ومن صور التبكيت والحسرة للمكذبين ، وتجرى فى هذا المشهد محادثة بين فرق ثلاث : فرقة المؤمنين أصحاب الجنة ، أهل الهدى والايمان . وفرقة الكافرين ، أصحاب النار ، أهل الضلال والبهتان . وفرقة ثالثة لم يتحدث عنها القرآن الا فى هذه السورة ، وفى هذا الربع وباسمها سميت السورة، وهى الفرقة التى سميت بأصحاب الأعراف « ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار » . « وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم » . « ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم » . « ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة » .

مشهد أخروى ، سيشهده العالم يوم البعث والجزاء دون تصوير ولا تخييل ، تبين تلك الآيات ما سيكون فيه من شماتة أهل الحق ، أصحاب الجنة ، بالمبطلين أصحاب النار « أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ » فلا يستطيعون الا أن يقولوا : « نعم » فينطلق صوت علوى ، يسجل عليهم اللعنة والطرد والحرمان ، ومشيرا الى أن ظلمهم للحق ولأنفسهم هو الذى حملهم على الصد عن سبيل الله وعلى السلوك المنحرف ، وعلى الكفر بما يرون الآن . وتبين أن بين الجنة والنار حجابا ، وأن على الأعراف رجالا ، يعرفون كلا من أهل الجنة والنار بسيماهم ، فينادون أهل الجنة بجميل التحية والتكريم : « أن سلام عليكم » وينادون الآخرين بما يضاعف حسرتهم ، ويبين لهم ما كانوا فيه من غرور : « ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون . أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة » ؟ .. ثم يلتفتون الى أهل الايمان ويقولون : « أدخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون ».

ويستقر أهل الكفر والضلال فى الجحيم ، وتشوى النار وجوههم ، وتجفف أكبادهم ، فيفزعون الى نداء أهل الجنة : « أن أفيضوا

(*) الآيات من ٤٧ الى نهاية الآية ٦٤ من سورة الأعراف .

علينا من الماء أو مما رزقكم الله » فيقولون لهم : « ان الله حرمهما على الكافرين الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا ». وهنا يقطع الله أعذارهم بأنهم كانوا فى حل يوم أن جئناهم بكتاب فصلناه على علم ، فماذا يقولون اليوم وقد تركوه من قبل ؟ .. « قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا ، أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل ، قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون » .

تلك شماتة المؤمنين بالكافرين ، وتحسر الكافرين على حرمانهم وسوء مصيرهم وبشرى أصحاب الأعراف وتحيتهم للمؤمنين ، وتبكيتهم للمنكرين الضالين ..

الحجاب والاعراف

وقد تكلم العلماء كثيرا فى الحجاب الذى بين الجنة والنار ، كما تكلموا فى معنى الأعراف وفى رجاله . والذى يجب علينا ان نؤمن به أن هناك حجابا بين الجنة والنار ، وقد يكون ماديا ، وقد يكون معنويا ، والذى يعلم حقيقته هو الله وحده . والقصد ان هناك ما يمنع وصول أهل الجنة الى النار ، أو وصول حرارة النار اليهم ، ويمنع وصول أهل النار الى الجنة ، أو وصول نعيمها اليهم . وان هذا الحجاب لا يمنع من وصول الأصوات عن طريق المناداة .. ولعل ما نشاهده ، وما نحن فيه الآن من سماع الأصوات دون رؤية ومشاهدة ، أو الرؤية دون اتصال أو قرب ، أوضح شاهد على أن ما تصوره الايات حقيقة تقع وتأخذ حظها من الوجود ، وليست تخييلا ولا تمثيلا .

أما الأعراف ، فأظهر ما نراه فى معناها ، الأماكن العالية الممتازة . يكون عليها رجال لهم من المنزلة الرفيعة عند الله ما جعلوا به مشرفين على هؤلاء وهؤلاء ، وهم عدول الأمم ، والشهداء على الناس ، وقد جاء التصريح بهم فى مثل قوله تعالى : « فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا » . « وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء ، وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون » .

عظـات

وبعد هذا تعود الآيات فتلفت الأنظار الى بعض الأدلة الكونية وتوجه النفوس الى دعوة الله تضرعا وخيفة ، وتحذر الافساد فى الأرض ، وتذكر مثلا للنفوس الطيبة التى تنفعل بهذه الأدلة فتؤمن وتصدق وترد الأمر كله الى مصدره ، خالق السموات والأرض ، والذى له الخلق والأمر . ومثلا آخر — يقابله — للقلوب الملتوية التى تصرفها الشهوة عن الحق ، ويتحكم فيها الكبر ، فيمنعها من قبوله : « والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه والذى خبث لا يخرج الا نكدا » . ثم تعود الآيات فتذكر تفصيلا لما أجملته السورة فى أولها من أحوال الأمم المكذبة ، فتذكر جملة من الأمم التى كذبت رسلها وعتت عن أمر ربها ، وتبدأ بالرسول الأول الأب الثانى للبشر « نوح عليه السلام » ، فتبين أن دعوته كانت هى دعـــوة محمد عليه الصلاة والسلام : « أعبدوا الله ما لكم من اله غيره » ، وان الذين ناصبوه العداء وأخذ يسالمهم ويناصحهم ، هم المستكبرون من قومه . كما كان شأن المكذبين لمحمد عليه السلام . وان نوحا لمـــا صبر وصابر واستمر قومه على العناد والمكابرة كانت العاقبة للجميع : « فأنجيناه والذين معه فى الفلك ، وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا انهم كانوا قوما عمين » . وهكذا سنتنا مع الآخرين المكذبين .

سورة يونس

الربع الثالث :

(*)عنيت سورة يونس بما عنيت به السور المكية ، من تقرير التوحيد ، والرسالة والبعث ، ودفعت جملة من الشبه التى كان القوم يثيرونها حول رسالة الرسول ، وحول القرآن . ووصفت فى كل ذلك ماشاءت أن تصف ، وفى هذا السياق ضربت للقوم مثل الحياة الدنيا التى خدعتهم زخارفها ، وحالت بينهم وبين استجابة الدعوة ، وهى دعوة الله التى يدعو بها الى دار السلام ، والأمن من الشقاء والحيرة والارتباك ، ثم تصف حالة المحسنين الذين استمعوا للدعوة وما يحصلون عليه من الكرامة الخالدة ، والمكانة الرفيعة التى لا يلحقهم فيها نكد ولا ذلة : « أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون » وتصف بازائها حالة المسيئين الذين كسبوا السيئات ، وما يصيبهم فى دار الخزى من المذلة والمهانة : « أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

ثم تصف مشهدا من المواقف التى يصير اليها المكذبون يوم الحشر الذى ينكرونه ويستهزءون بذكراه ، ذلكم المشهد الذى يفرق فيه بينهم وبين شركائهم فتذهب آمالهم فيهم ، وتتقطع ما بينهم من صلات ، ويتبرأ منهم الشركاء : « ما كنتم ايانا تعبدون » ، « ان كنا عن عبادتكم لغافلين » ، وفى هذا الموقف ينكشف الغطاء ، وتزول الأهواء ، وترى كل نفس ما قدمت من عمل ، ليس لها شفيع من دونه : « وردوا الى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون » .

تحكيم الفطرة

ثم تنتقل الآيات الى تحكيم الفطرة البشرية فيما تشهد به من توحيد الربوبية فى الخلق والتدبير والرزق ، والاحياء والامانة ، وتسجل عليهم الجواب المتين الذى لا تعرف الفطرة سواه ، توحيد الالوهية القاضى بعبادة الله وحده « فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق الا الضلال » .

(*) الآيات من ٢٥ الى آخر الآية ٥٢ من سورة يونس .

ثم تنتقل بهم الى تحكيم الفطرة أيضا فيما وراء الخلق المادى من أنواع الهداية المودعة فى نفوس البشرية وهى هداية العقل ، وهداية الوجدان : « هل من شركائكم من يهدى الى الحق ، قل الله يهدى للحق ، أفمن يهدى الى الحق أحق أن يتبع ، أمن لايهدى الا أن يهدى » .

دول القرآن

ثم تنتقل الآيات بعد الحجاج العقلى والوجدانى الى موقف القوم بالنسبة للقرآن ، وقد كانوا ينكرون انه من عند الله ، فبينت لهم أولا ان القرآن بطبيعة ما اشتمل عليه ، من تقرير الحقائق ، واقامة الأدلة الكونية وشرح النفسيات الانسانية ، والسنن الاجتماعية ، والمغيبات الماضية والمستقبلة ، والأحكام التى ترشد الى السعادة ، يأبى بكل ذلك أن يكون من عند محمد ، أو غيره ممن لا سبيل الى معرفتهم بما احتوى عليه القرآن ، فهو حق من عند الله لا ريب فيه ، وهو تصديق لما بين يديه من كتب الأولين : « وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله » .

ثم أخذت بهم الآيات ثانيا ، على افتراض انه افتراء من عند محمد ، الى التحدى ، ودعتهم الى الاتيان بمثله ، أو بسورة مثله ، فهم ومحمد فى البيئة واللغة سواء : عربى وعرب ، وبليغ وبلغاء .

ثم تكشف لهم عن حقيقة أمرهم ، وهى أنهم قوم مجترئون على ما لم يحيطوا بعلمه ، ولم تنفذ عقولهم الى أسراره وحكمه ، وسيتضح لهم عاقبة ظلمهم فى أنفسهم ، كما اتضحت لاخوانهم المكذبين من قبل : « فانظر كيف كان عاقبة الظالمين » . ثم ترشد الآيات الى أن جهلهم بحقيقة ما اشتمل عليه الكتاب ، أو عدم ايمانهم به ، لم يكن ناشئا من خفاء الكتاب أو اضطرابه . وانما هو ناشىء عن صلفهم وتكبرهم عن النظر فى الحق ، وأنه لا ذنب لاحد سوى أنفسهم فى تكذيبهم لتلك الحقيقة الواضحة : « أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون » ، « أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون » . فما عليك أيها الرسول سوى أن تدعوهم بحجتك وأن تنذرهم يوم الحشر ، يوم ينكشف لهم الغطاء ، وينزل بهم العذاب ، وقد تخلف عنهم كل ما أغراهم من زينة الدنيا وشهواتها ولم ينتفعوا بشىء منها ، أو كأنهم لم يلبثوا فيها الا ساعة من النهار ، وهنا تسجل الآيات عليهم الخسران الأبدى بما فرطوا فى جنب الله :

« قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين » ، « ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد ، هل تجزون الا بما كنتم تكسبون » .

الربع الرابع :

انذار وامهال

(*) من سنة الله مع المكذبين أن ينذرهم ، ثم لا يأخـذهم من قريب ، بل يمهلهم فترة يستطيعون فيها مراجعة أنفسهم ، فاذا ما انقادوا وآمنوا ضمهم اليه ، وغفر لهم ما أسلفوا من عناد . ومن الناس من يطغيهم الامهال وينسيهم تلك السنة ، فيتخيلون أنهم فى الانكار على حق ، ويندفعون الى السخرية والاستهزاء بما به ينذرون : « متى هذا الوعد ان كنتم صادقين » أحق ما تقول ؟ ! .. وهكذا يأخذ بهم الصلف الى استعجال العذاب ، أو السخرية به !..

أمام هذا الطغيان يأمر الله نبيه أن يقرر لهم أن العذاب حقيقة واقعة ، وأنه نازل بهم لا محالة ، وانهم غير قادرين على التخلص منه : « وما أنتم بمعجزين » . وتأكيدا لذلك فى نفوسهم تصور الآيات لهم ما تعتلج به صدورهم حينما يطوقهم العذاب من محاولة الافتداء ، وشدة الندامة على مواقفهم السالفة التى أوقعتهم فيما هم فيه . ثم توقظ ضمائرهم نحو ما استقر فى الفطرة البشرية من ان صاحب هذا الوعيد ، وصاحب هذه الدعوة ، هو الله الذى له ملك السموات والأرض ، والذى له الاحياء والاماتة ، والذى اليه المرجع والمآب : « هو يحيى ويميت واليه ترجعون » . ثم تأخذ الآيات فى بيان فضل الدعوة على الناس ، وانها موعظة زاجرة لهم عن القبائح ، وشفاء مطهر لقلوبهم من الأوهام والخرافات ، وارشاد موصل للحق والنافع ، ورحمة تقى الانسان العذاب والخسران . وهو استدلال على صحة الرسالة بنفس تعاليمها ، ثم تؤكد لهم ان هذه المزايا خير ما يجمعون من زخارف الدنيا الفانية التى ليس وراءها الا الخسران المبين .

(*) تقدمة الآيات من ٥٣ الى آخر الآية ٧٠ من سورة يونس .

ثم تبكتهم فى أثر من آثار كفرهم ، وهو اغتصاب حق الله فى التحليل والتحريم ، وتسجل عليهم الافتراء به على الله : « قل آلله اذن لكم أم على الله تفترون . وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة » أيظنون ان الله يجاملهم ولا يجازيهم ؟ .. « ان الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون » .

ثم تقرر الآيات احاطة الله بكل ما يكون من شأن الانسان ، وبكل ما أودع فى كونه الذى خلقه « وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا فى كتاب مبين » . وأنه بهذا العلم المحيط يقرر الجزاء العادل ، فالمكذب له من جزاء التكذيب ما توعد به المكذبين ، والمؤمن له من جزاء الايمان ما وعد به المؤمنين : « الا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون » ، لهم فى الدنيا ما يضيء وجوههم ، ويركز سلطانهم من عزة وقوة وجاه ، ولهم فى الحياة الأخرة ما يضيء وجوههم من علو الدرجات وزيادة الفضل والعطاء .

خرافة الشركاء

واذا كان هذا شأن الله مع المكذبين والمؤمنين ، وكان لا تبديل لكلماته ، فليطمئن دعاة الخير ولا يكن فى صدورهم حرج مما يذيع المكذبون وليثقوا بنصر الله الغالب على أمره ، الذى له ملك السموات والأرض ومن فيهن ، وليعلموا أن ما يعبد هؤلاء المكذبون من دون الله ، ويسمونهم شركاء ، ليسوا فى واقع أمرهم شركاء ، وانما هم ضعفة عجزة ، لا يدفعون عن أنفسهم شيئا ، « والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون » . وانما خيل لهم الهوى والشيطان أنهم شركاء ، فضلوا « وان هم الا يخرصون » ان الله الذى جعلوا له هؤلاء الشركاء من دونه هو الذى جعل لهم الليل ليسكنوا فيه ، والنهار ليبتغوا من فضله . وقد خرجوا بفساد تصورهم عن مقتضى الفطر ، ومقتضى الآيات ، وراحوا يكفرون بالله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، ويقولون فى شأنه ، ما ليس لهم به علم : « قل ان الذين يفترون على الله الكذب

لا يفلحون ، متاع فى الدنيا ، ثم الينا مرجعهم ، ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون » .

الربع الخامس :

(*) تضمنت سورة يونس كثيرا من أنواع الحجج العقلية ، ودفعت كثيرا من الشبه التى كان يثيرها المعاندون حول التوحيد والبعث والرسالة وكانت تذكر فى الأثناء بما أصاب الأمم السابقة حينما وقفت من رسلها موقف المكذبين لمحمد عليه السلام : « ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا » ، « كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين » ، « ولكل أمة رسول ، فاذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون » .

تســلية وعبرة

ثم جاءت هذه الآيات : « واتل عليهم نبأ نوح » تنفصل من هذه النذر الاجمالية قصتين ، لهما كثير من الشبه بقصة محمد مع قومه : قصة نوح عليه السلام ، وقصة موسى وهارون . وقصرت الحديث فى قصة نوح على ما دعت اليه حالة الرسول مع قومه وقت نزول هذه السورة ، حينما فقد المدافع عنه فيما بينهم ، وهو عمه أبو طالب ، وفقد النصير فى البيت ، بموت زوجه خديجة ، واشتد القوم فى ايذائه والكيد له ، فأخذت الآيات فى تسليته صلى الله عليه وسلم بموقف نوح من قومه ، وثباته على دعوته ، معتمدا فى ذلك على الله وحده ، وأرشدته الى أن طول الأمد على نوح ، وشدة اعراض القوم عنه ، لم يضعف من قوته ، بل تحداهم ، وطلب اليهم أن يجمعوا له كل ما يستطيعون جمعه من قوى الكيد والشر ، وان يتحروا فى أمرهم ، ويزيلوا عنه كل شبهة تعترضهم فى سبيل الايقاع به والقضاء عليه ، ثم يتجهوا له بكل ما هيئوا ورتبوا ، دون امهال أو تردد ، وسوف يرون أنه لا يرفع لهم راسا ، ولا يعبأ لهم بجمع ، وكيف لا يهتز بجمعهم وهو لم يطلب بدعوته اياهم جاها ولا مالا ، وانما يطلب بدعوته تنفيذ أمر ربه ، الذى وكل أمره اليه ،

(*) الآيات من ٧١ الى نهاية الآية ٨٩ من سورة يونس .

واعتمد فى السراء والضراء عليه : « يا قوم ان كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت » .

فهذا يا محمد ، موقف أخيك نوح ، تمسك به وان طال عليك الأمد ، واشتدت شكيمة الاعداء ، وثق بأن عاقبتك عاقبته ، وعاقبة المكذبين لك هى عاقبة المكذبين له ، وتلك سنتنا ولن تجد لسنتنا تبديلا ، فليتحصن أرباب الدعوات الصالحة بايمانهم وتوكلهم على الله ، وسينظر الله اليهم ، وينزل بأعدائهم ما جرت سنته على انزاله بأعداء الحق فى كل زمان ومكان . وهكذا فعل بقوم نوح ، وفعل بنوح ، « فكذبوه فنجيناه ومن معه فى الفلك وجعلناهم خلائف واغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين » .

أما قصة موسى وأخيه ، فقد تحدثت الآيات فيها عن مراحل الدعوة من مبدئها الى منتهاها : تحدثت عن العوامل التى استكبر بها فرعون وملؤه عن قبول الدعوة ، وردتها الى أمرين : التمسك بالموروثات الفاسدة « أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا » . واعتقاد أن دعوته تسلبهم كبرياء الملك والعظمة ، وتجعلها لموسى وأخيه « وتكون لكما الكبرياء فى الأرض » وأخذوا بهذا ينفرون الناس من الدعوة ، ويقولون : « ان هذا لسحر مبين » .

الباطل هزيل

ثم تحدثت عما جرت به سنة المكذبين من أساليب المقاومة الهزيلة التى توقع فى روع العامة ان المعارضين على حق فى المعارضة والتكذيب ، ولكن الباطل لا صبر له على البقاء أمام الحق ، وسرعان ما تتزلزل قوائمه ، ويقع صريعا فى ميدان التحدى « ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون » ..

وقد كان من المنتظر بعد هذا أن يقبل الناس على الايمان ، ولكن الجبروت يتخذه صاحبه سلاحا فى يده ، يرد به الناس عن تلبية الحق ، وبهذا يحجم كثير عن الايمان ، ولا يقوم عليه الا أرباب النفوس القوية ، التى تبدد قوة ايمانهم غشاوة الخوف عن قلوبهم ، « على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ، ونجنا برحمتك من القوم الكافرين » .

ثم يرشد الله موسى وأخاه الى وسيلة تشد من أزرهم ، وتوقع الرعب فى قلوب أعدائهم ، وهى أن يتقاربوا ويجعلوا بيوتهم متقابلة ، سبيلا للتكتل ، وأن يتجهوا الى الله بالدعاء واقامة الصلاة ، فتسمو أرواحهم ويشرق عليها نور الحق .

ثم يتجه موسى الى ربه : « ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ، ربنا ليضلوا عن سبيلك ، ربنا اطمس على أموالهم ، واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم » .

ينطلق لسان موسى بدعوة الاخلاص والغيرة على الحق ، فتخترق حجب السماء ، ويسمع موسى من ربه : « قد أجيبت دعوتكما ، فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون » وهكذا تصل القلوب المؤمنة الى نصر الله وتأييده .

الربع السادس :

النظر فى العواقب

(*) لو تمثل للسارق وقت سرقته قطع يده أو للزانى وقت زناه، حرمانه من الرأفة . أو تمثل للذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا قتلهم أو نفيهم من الأرض ، لما أقدم سارق على سرقة ، ولا مجرم على هتك عرض ، ولا مفسد على الافساد . وتلك طبيعة بشرية تتجلى فى المجرمين حينما يأخذهم العذاب ، وينزل بهم النكال . . وهكذا قص الله علينا المرحلة الأخيرة من شأن موسى وفرعون فى تأييد الحق ونصرته ، وازهاق الباطل والقضاء على عناصره .

ايمان بعد فوات الاوان

يقتحم فرعون وجنوده البحر وراء موسى وقومه ، بقصد الفتك بهم « بغيا وعدوانا » حتى اذا ما أخذ البحر يطبق عليه ، تنبه وعيه ، وأخذ لسانه يضطرب بكلمة التوحيد « آمنت انه لا اله الا

(*) الآيات من ٩٠ الى آخر سورة يونس

الذى آمنت به بنو اسرائيل » . ولكن هيهات بعد أن كاد للحق ، وكان فى سعة من الامر ، والرسول يدعوه ، وآيات الله تتلى عليه وهو لاه بسلطانه ، مغتر بقوته . هيهات وقد نزل القضاء أن يقبل منه ايمان ، أو يلحقه عفو وغفران « آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين » . ولم يبق سوى أن يجعل منه آية ، يعتبر بها كل من يصل اليه نبؤه ، ويعرف سنة الله فى المفسدين : « فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية » . وتلك هى الخاتمة السيئة التى زلزلت عرش الطغيان . وجدير بها أن تظل ذكراها ماثلة ، يتذكر بها كل جبار عاقبة الجبروت والطغيان « وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون » .

بعد هذا تختم السورة بجملتين من الآيات ، فيهما فصل الخطاب من جهة القرآن وحقيته ، ومن جهة ثبات الرسول وقـوة ايمانه بدعوته .

تأسيس الايمان

أما الجملة الأولى من الآيات ، فقد افترضت وقوع الشك فى القرآن وأرشدت الى ما يقطع دابر هذا الشك ، ليكون الايمان عن حجة وبرهان لا خضوعا لقهر ، ولا استسلاما لتقليد : « فان كنت فى شك مما أنزلنا اليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك » وبذلك يخلع الانسان نفسه من طائفة الشاكين المكذبين ، الذين اتضحت لهم حجج الحق ، وران العناد على قلوبهم ، فلم ينتفعوا بالآيات ، وحقت عليهم كلمة الله وكانوا من الخاسرين .

وقد ضربت الآيات قوم يونس مثلا ، فانهم لما آمنوا كشف الله عنهم عذاب الخزى ومتعهم بما قدر لهم من نعيم ، فهلا يسـلك هؤلاء المكذبون سبيلهم ، فينجوا كما نجوا ، ويمتعوا كما متعوا ؟ .. ان التكذيب لم يكن مفروضا عليهم ، وان الايمان لا يكون عن قهر والجاء ، ولو أراد الله ذلك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا ، ولكن خلق الله الانسان وجعله مستعدا للايمان والكفر ، ، تصحيحا لقاعدة التكليف والجزاء .. وتلك سنته التى ربط فيها بين الأسباب المقدورة ، والمسـببات المطلوبة : « وما كان لنفس أن تؤمـن الا باذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون » .

وإذن الله ، سنته ونظامه فى ايمان من يؤمن وكفر من يكفر ، عن اختيار وتقبل لا عن قهر والجاء ؛ واذا كان الشأن مبنيا على ما يختار المرء لنفسه ، فسبيله أن ينظر ويفكر ، فمن اقبل بقلبه على المعرفة ، آمن وعرف ، ومن أعرض عن النظر والتدبير فماذا تنفعه الآيات والنذر ، ليس له فى سنتنا سوى ما قصصنا من أخبار الذين خلوا من قبل « قل فانتظروا انى معكم من المنتظرين ، ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا ننج المؤمنين » .

ثبـــات الرســـول

ثم أخذت الجملة الثانية من الآيات ، تصور ثبات النبى على دعوته وتؤكد انفعال نفسه بها ، انفعالا يبطل ما يوجه اليه من مساومة أو محاولة ، وفى هذا السياق ، تقرر الآيات الأصول الأولى للدعوة فتذكر تطهير القلب من عبادة غير الله ، واخلاص العبادة له وحده وربط القلب به عن طريقه المستقيم الذى لا عوج فيه ولا انحراف . ثم توصد باب التوجه الى غيره بالعبادة ، وتحذر دعاء غيره أيا كان ، وترشد الى ان غيره أيا كان ، لا ينفع ولا يضر ، والعاقل يجب أن يعرف الحقائق ، وأن يركن اليها ، فكما لا يعبد غير الله لا يدعو غير الله ، ولا يطلب من سواه ، فهو صاحب الأمر ، وصاحب التصريف ، ولم يجعل لأحد من عباده حق التصرف فى خلقه : « وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو ، وان يردك بخير فلا راد لفضله » .

هذا هو الدين الحق ، أوحاه رب الناس الى الناس ، واضح المعالم ، بين المسالك ، فمن اهتدى به فقد أنقذ نفسه ، وحصل سعادته ، ومن ضل واتبع الأهواء فقد دس نفسه وعرضها للخزى والنكال .

أما أنت يا محمد فسر فى طريقك وثبت قلبك : « واتبع ما يوحى اليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين » .

ســـورة هـــــود

الربع الأول :

(*) هود عليه السلام ، هو اول رسول الى قوم عاد . وعاد أول أمة من نسل سام بن نوح ، وقد تحدث القرآن كثيرا عن هود فيمن تحـــدث عنهم من رسل الله الكرام ، وقد ذكر باســـمه خمس مرات فى هذه السورة التي سميت به ، وقالوا : انه أول من تكلم باللغة العربية .

وسورة هود من السور المكية ، شأنها كسائر المكى : تقرير أصول الدين ، واقامة الأدلة عليها ، ورد الشبه التى كان يثيرها المعارضون حول الدعوة وصاحبها عليه السلام .

عناصر الدعـــوة الالهية

والمتدبر ، للسورة يرى أنها . أولا : قررت عناصر الدعوة الالهية — وهى : التوحيد ، والرسالة ، والبعث — عن طريق الحجج العقلية ، مع الموازنة بين النفوس المســتعدة للايمان ، والنفوس النافرة منه . وقد عرضت ذلك فى أربع وعشرين آية يختم بها الربـع الأول منها : « مثل الفريقين كالأعمى والأصم .. »

ثم أخذت تتحدث عن جملة من الرسل السابقين ، بيانا لوحدة الدعوة الالهية ، وتسلية للرسول عليه السلام ، وانذارا للمكذبين ، واستغرق ذلك الى نهاية الآية التاسعة والتسعين : « واتبعوا فى هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود » ثم ذكرت فى اثنتى عشرة آية بالوعد والوعيد ، وبسنة الله فى أخذ الظالمين . وختمت بتوجيه الخطاب الى النبى ومن تاب معه فى مثلها اثنتى عشرة آية مرشدة الى منهاج السعادة والفلاح . وتبتدىء من قوله تعالى : « فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا » الى نهاية

(*) الآيات من أول السورة الى نهاية الآية ٢٣ من سورة هود .

السورة : ولله غيب السموات والأرض واليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون » .

كتاب محكم

هذا هو موجز ما اشتملت عليه سورة هود ، وقد بدأت فوصفت الكتاب بالاحكام ، فلا يتطرق اليه خلل . وبالتفصيل فليس فيه خفاء وبأنه تنزيل الحكيم الذى لا يضل ، الخبير الذى لا تخفى عليه مصلحة . تأخذ فى تقرير الوحدانية والبعث ، وان الله سبحانه هو وحده المرجع فى طلب المغفرة وقبول التوبة ، وان مهمة الرسول ، هى الانذار والتبشير : « ألا تعبدوا الا الله اننى لكم منه نذير وبشير ، وأن استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يمتعكم متاعا حسنا الى أجل مسمى ويؤت كل ذى فضل فضله . وان تولوا فانى أخاف عليكم عذاب يوم كبير . الى الله مرجعكم وهو على كل شىء قدير » .

وفى اثناء ذلك تشير الى ما يحصل عليه الانسان من سعادتى الدنيا والآخرة اذا هو لبى الدعوة وآمن بها ، وما يصيبه من خسران وشقاء اذا هو استمر على كفره واعراضه ، ثم تصور لنا حالة المعرضين فى محاولتهم انكار الحق ، وانطوائهم فى ثيابهم على صدورهم مع وضوح الأدلة فى أنفسهم وفى الآفاق : « وما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها » . « وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام » .

ثم ترشد الى ان اعراضهم عن الحق لم يكن لخفائه ، وانما هو لاضطراب نفوسهم وترددها بين يأس الضراء وبطر النعماء ، ولو انهم عصموا أنفسهم من ذلك وعرفوا الحق واستقر فى قلوبهم،لكان لهم من صبر الايمان وصالح الاعمال ما يطمئنهم على حسن العاقبة : « الا الذين صبروا وعملوا الصالحات ، أولئك لهم مغفرة وأجر كبير » . ولكن القوم مع هذا البيان الواضح ما كانوا يتركون احراج الرسول باقتراح ما لا يدخل تحت قدرته من الآيات ، فأخذت الآيات فى تسليته ، وبيان ان فى القرآن الغناء لمن أن يؤمن ، وليس على الرسول الا أن يقوم بمهمته ، وهى التبليغ والانذار ، وان تكذيبهم اياه لم يكن لطلب حجة هم فى حاجة اليها . وانما هى الدنيا ، ملكت عليهم قلوبهم ، وصرفتهم عن النظر فى حجة الله التى أنزلها بعلمه،وسيرون

ما ينزل بهم من جزاء : « أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار ، وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون » . ثم تزيده تثبيتا على حقية الدعوة بأنها دعوة يؤمن بها من طهر قلبه واتجه اليها ، والى نفسه فاتخذ منهما البرهان على صدقها ، ثم رجع الى تاريخ البشرية وعرف انها رسالة الله الى خلقه : « أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى اماما ورحمة أولئك يؤمنون به » . وما يكفر به الا الذين حرموا من ادراك الوجدان وبرهان العقل ، وعميت عليهم أنباء الأولين : « فلا تك فى مرية منه انه الحق من ربك » .

ثم تعود الآيات فتصف المكذبين بجملة من الأوصاف وترشد الى سوء مصيرهم ، وتسجل مضاعفة عذابهم وحرمانهم من النصير المدافع . ثم ختم عليهم بقوله تعالى : « أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون » . ومن شدة التنكيل بهم تضع أمام أعينهم عاقبة المؤمنين : « أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون » . ثم تضرب المثل للفريقين بما يعرفون به مقدار التفاوت بينهم : « مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا ، أفلا تذكرون » .

الربع الثانى :

(*) هذا هو الفصل الثانى من سورة هود ، ومن سنة القرآن أن يتبع تقرير الدعوة بما يدل على انها بأصولها وأدلتها ونتائجها فى الدنيا والآخرة ، هى دعوة الألوهية الوحيدة ، التى بعث الله بها جميع رسله من مبدأ الخليقة الى مرحلتها الأخيرة ، مرحلة الاكمال والاتمام ، وهى مرحلة محمد عليه السلام . وان محمدا لم يكن بدعا فيها ، كما أنه لم يكن بدعا فى المقابلة بالتكذيب من قومه ، وانما شأنه فى الدعوة وفى اعراض قومه عنه ، شأن اخوانه السابقين مع أممهم ، وسيكون شأنه ، وشأن قومه فى العاقبة شأنهم وشأن أقوامهم : « فهل ينتظرون الا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم ، قل فانتظروا انى معكم من المنتظرين ، ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا ننج المؤمنين » .

(*) الآيات من ٢٤ الى نهاية الآية ٤٠ من سورة هود .

وفى هذا السبيل ذكرت السورة نوحا وقومه وهودا وقومه ، وشعيبا وقومه ، وموسى وفرعونه . وفى كل قصة من هذه القصص عبرة أو عبر ، جدير بدعاة الحق فى كل زمان ومكان أن يملأوا بها قلوبهم ، فيطمئنوا الى نصر الله وتأييده ، وجدير بالمكذبين أن يتمثلوها حتى لا يصيبهم مثل ما أصاب أسلافهم من قبل .

قصة الاب الثانى للبشرية

وبدأت السورة بالأب الثانى للبشر ، وهو نوح عليه السلام ، فذكرت انه دعا قومه الى توحيد الله ، وانه أنذرهم الشقاء الأبدى اذا هم أعرضوا عن دعوته ، واستمروا على عبادة الاصنام من دون الله : « انى أخاف عليكم عذاب يوم أليم » وذكرت ان القوم طعنوا فى رسالته ، فقالوا : انه بشر مثلهم ، والبشر لا يصلح فى نظرهم أن يكون رسولا ، وقالوا : انه لم يجب دعوته الا أراذل القوم يريدون الطبقة الدنيا « الفقراء » ولو كانت حقة لسارع اليها أرباب المصالح والثراء « الطبقة العليا » ، وانه لا ينبغى لهم أن يجعلوا انفسهم وهم أصحاب المال والسلطان فى مستوى هؤلاء الفقراء ، يجمعهم واياهم دين واحد ، ويخضعون معهم لسلطان واحد ، وانهم لا يرون لهم ، ولا لرسولهم من المزايا ما يهون عليهم أن ينزلوا بأنفسهم الى مشاركتهم فى اتباعه والايمان به ، ولعل هذا الموقف من قوم نوح ، هو أول بعث لفكرة الطبقات ، التى تتقلب بها المجتمع البشرى — ولا يزال — على كتل من الجمر ، محرقة للفضائل ، مضيعة للكفارات ، فمتى يفيق العالم وهو فى آخر مراحل الرقى ، ويخلص نفسه من هذه العلة المزمنة التى اندفع اليها وهو فى طور الطفولة الذى لا رشد فيه ؟ . .

ثم جاءت الآيات تفند هذه الطعون ، وتقتلع هذه الفكرة من أساسها وتقرر أولا أن صاحب الدعوة ، وقد توافرت لديه أدلة الايمان بها ، وليس من شأنه أن يكرههم عليها اذا خفيت عنهم ، وهو لا يطلب منهم مالا ولا عزة ولا ترتبط دعوته بالمال ولا بالسلطان ، وانما يدعوهم اليها طلبا لخيرهم ، وعملا على مصلحتهم ، فعلام هذا الموقف الذى ان دل على شىء فانما يدل على التمرد والبعد عن فهم الحقائق ؟ . . والا فكيف ينقمون منه ان أجاب الفقراء دعوته ؟ وهى دعوة الله الذى لا يزن خلقه بميزان الغنى والفقر ،

ولا بميزان القوة والضعف وانما يزنهم بمقياس الصفاء والاخلاص ، والايمان بالحق الذى يدعو اليه . كيف ينقمون منه هذا ويطلبون منه أن يطردهم : « وما أنا بطارد الذين آمنوا انهم ملاقوا ربهم ولكنى أراكم قوما تجهلون ، ويا قوم من ينصرنى من الله ان طردتهم » ؟ .

ان النبوة ليست اكثر من اصطفاء الله لمن يقوم بتبليغ رسالته ، وليس من لوازمها ، بل ولا يصح أن يكون من لوازمها أن يكون الرسول ملكا ، أو ان يكون عنده خزائن الله ، أو ان يكون محيطا بغيب الله فهو بشر ، يقف عند حدود البشرية ، لا يتجاوزها الا بمقدار ما يوحى اليه ، وهو بذاته لا يعلم الا ما يعلمــه البشر ، ولا يقدر الا على ما يقدر عليه البشر ، وان الله قد كلفه بتبليغ رسالته ؛ ولم يجعل الناس امامه فى التبليغ الا كما جعلهم فى الخلق ، سواسية لا طبقات ، ولا اسياد ، ولا أراذل « ولا اقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا ، الله أعلم بما فى أنفسهم ، انى اذا لمن الظالمين » .

سفاهة قوم نوح

وقف نوح مع قومه الف ســنة الا خمسين عاما ، يقيم الحجة ، ويدفع الشبهة حتى أخرسهم الحق ولم يجدوا منفذا للقول . فراحوا يستعجلون العذاب الذى توعدهم به ، شأن الموغل فى العناد ، يلقى بنفسه فى اليم ، أو فى النار ،حتى لا يقال : غلب على أمره ، وخضع لغيره ، ولا يدرى أنه يسجل على نفسه نهاية الخزى فى الاعراض عن الحق تبعا لشهوة باطلة، أو خيال فاسد : « يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين » ، فيقرر لهم نوح الحق الذى يؤمن به « انما يأتيكم به الله ان شاء وما أنتم بمعجزين » .

وتأتى المرحلة الاخيرة فيعلم الله فيها نوحا انه لن يؤمن من قومه الا من قد آمن ، فاطو صفحة جهادك معهم ، واتخذ وسيلة النجاة لك ولقومك : « واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون » فيمتثل نوح الأمر ، ويصنع الفلك « وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه » ، فيؤكد لهم ان عاقبتهم

فى موقف السخرية والعذاب ، هى عاقبتهم فى موقف السخرية بالرسالة ، سيصيبهم خزى العذاب ، كما أصابهم خزى الحجة والبرهان . وان من العذاب ما يرفع صاحبه الى الهامات ، وهو عذاب الرسل والمجاهدين فى سبيل الحق يصيبهم على أيدى الطغاة الظالمين ، وهو عذاب مستعذب ، مشرف لصاحبه ، يعقبه نعيم مقيم ..

ومن العذاب ما ينزل بصاحبه الى أحط الدرجات ، ويكون مثلا يشفى صدور المؤمنين ، ويزعزع كيان المبطلين ، وهو عذاب الاعراض عن الحق والكيد لأهله وهو عذاب الخزى الذى يعقبه عذاب دائم اليم « فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم » .

الربع الثالث :

نبوة الايمان هى الحقة

(*) صنع نوح السفينة ، واتم عدته ، ونفذ ارشاد الله ، وحمل فيها مع أتباعه من كل صنف زوجين اثنين ، وفار التنور ، وتفجر الماء حتى طغى ، وأخذت السفينة تجرى بهم فى موج كالجبال « ونادى نوح ابنه وكان فى معزل : يا بنى اركب معنا ، ولا تكن مع الكافرين » فأبى الولد ، وعزف عن دعوة أبيه ، واعتقد انه يعتصم بغير الله ، ودفعت نوح شفقة الأبوة الطبيعية ، فطلب من الله انجاز وعده فى أهله معتقداً أن ابنه من أهله ، الذين وعد الله بنجاتهم مع نوح : « ان ابنى من أهلى وان وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين » فيرد الله عليه بأن البنوة الطبيعية لا مكانة لها عند الله ما لم تشد أزرها بنوة الحق ، والاعتصام بأمر الله « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم واخوانكم أولياء ان استحبوا الكفر على الايمان » ، « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم » ، وهذا فى رسالة محمد يؤكد ويفصل ما جاء فى رد الله على نوح : « يا نوح انه ليس من أهلك ، انه عمل غير صالح »

(*) الآيات من ٤١ الى نهاية الآية ٦٠ من سورة هود .

ويدرك نوح زلته ويلتمس من ربه المغفرة : « انى اعـوذ بك أن اسـألك ما ليس لى به عـلم والا تغفر لى وترحمنى اكن من الخاسرين » فيغفر الله لنوح زلته ، ويتم عليه وعلى من معه نعمته : « وقيل بعدا للقوم الظالمين » .

الطوفان

وقع الطوفان ، وذهب بأعداء الله ، أعداء الحق ، وتلك عبرة القصص فى القرآن ، وقد صرف الناس عنها بحوث وضعت فى الكتب والتفاسير ، شغل الناس بها عن العبر والعظات ، وكان من ذلك الكلام الكثير فى عموم الطوفان وخصوصه ، وعموم رسالة نوح وخصوصها ، فمن قائل : بأن الطوفان لم يكن عاما ، وان التناسل البشرى لم يكن خاصا بذرية نوح ، ولم يكن نوح الأب الثانى للبشر ، وأن رسالته كانت خاصة بقومه بحكم السنة الالهية فى ارسـال الرسل الى اقوامهم . ومن قائل بأنه لم يكن بسطح الأرض سـوى قوم نوح الذين لم يؤمن منهم الا قليل ، وهم الذين كانوا معـه فى السفينة ، وان رسالته كانت عامة بحكم انحصار الناس فى قومه لا بحكم انه مرسل لهم ولغيرهم ،وان نوحا هو الأب الثانى للبشر ، تناسلت البشرية من ذريته فقط بعد الطوفان ، وان الطوفان كان عاما للمعمور من الأرض اذ ذاك .

هكذا اختلف الناس وأكثروا من القول .

رأى الامام الأكبر

والذى نراه أن المسألة من المعارف البشرية التى تركها الوحى لبحث الانسان ، لا تفسيرا للقرآن ، وليس من مهمة القرآن أن يحدد الأوضاع ، ولا أن يعين الوقائع ، وانما مهمته الارشاد الى ما تدل عليه القصة من جهات العظة وأنواع العبرة . وعلى كل فـ « نوح » أرسل لقومه فقط ، أما انه كان فى المعمورة غير قومه ولم يرسل اليهم ، أو انه لم يكن فيها سواهم ، فهذا شىء ليس له تأثير فى هدف القصة ، ولا يمس اختصـاص محمد عليه الصـلاة والسلام بعموم الرسالة لقومه ولغير قومه الموجودين على سـطح

الأرض ، ومن سيوجد عليها الى يوم الدين : « قل ياأيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا » .

هذا .. وفى العظة المقصودة من هذا القصص ، وفى دلالته على ان القرآن من عند الله ، يختم الله قصة نوح بقوله لنبيه على مسمع من القوم : « تلك من انباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ان العاقبة للمتقين » .

قصـة هـود

ثم تتبع الآيات قصة نوح ، بقصة هود عليه السلام ، فتذكر دعوته ايضا الى قومه ، وانه أخذ بهم الى سبيل الخير والقوة عن طريق عبادة الله وحده ، واستغفارهم مما هم فيه من الطغيان : « استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة الى قوتكم ولا تتولوا مجرمين » . وتذكر معارضـة قومه له وانكارهم عليه ، وان آلهتهم أنزلوا به الجنون والاضطراب ، فيتبرأ هود من آلهتهم ويتحداهم ، ويستنهض همتهم فى أقصى ما يستطيعون من قوى الكيد ، وانه سوف لا يعبأ بهم ولا بجمعهم : « انى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها » ..

وتذكر بعد ذلك خاتمة أمره مع قومه على حسب سنة الله فى نصرة اوليائه ، وخزى أعدائه :

« ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ . وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد . واتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة الا ان عادا كفروا ربهم ألا بعدا لعاد قوم هود » .

ســــورة الكهف

تقـــديم :

(*) سورة الكهف هى السورة الثالثة من سور خمس فى القرآن الكريم ، بدئت بـــ « الحمد لله » قبلها سورتان همــا الفاتحة ، والأنعام ، وبعدها سورتان هما سبأ ، وفاطر . وسورة الكهف تضع حدا عن طريق التربية الروحية لضلال قديم ألفه الناس فى تقويم الحياة ، ذلك هو تقدير القيم الانسانية بحظوظ المال والثراء والجاه ، وتبين أن ما على الأرض من زينة ونعم مادية انما كان طريقــا لاختبار الناس أيشــكرون أم يكفرون ؟ .. وليس هو كل ما يقصد من الحياة ، بل هناك ما هو أسمى منه وأرفع : « انا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا » .

قصص وأمثلة للعظة والعبرة

وفى سبيل ذلك نقص ثلاث قصص لكل منها دلالتها الخاصة فى تقدير الحق بذاته ، وارتباطه بطهر العقيدة ونقاء النفس لا بالمال ولا بالحياة : قصة أصحاب الكهف ، وهى قصة التضحية بالنفس فى سبيل العقيدة : « انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى » . قصة موسى مع العبد الصالح ، وهى قصة التواضع الذى لا يعرف — فى سبيل العلم . والتكمل بالمعرفة — التكبر ولا الغرور : « هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشــدا » ؟ .. وقصة العــدل واغاثة الضعيف ، وهى قصة ذى القرنين الذى أنصف بعدله وقضى بقوته على المفســدين .

وكما استخدمت السورة فى سبيل هدفها هذه القصص الثلاث استخدمت فيه من جهة أخرى أمثلة ثلاثة ، بينت بهــا ان الحق لا يرتبط بكثرة المال ولا بعلو الانسان ، وهو مثل الغنى المكاثر بماله

(*) تقدمة عامة لسورة الكهف .

والفقير المعتز بايمانه : « واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين .. » ، ومثل الحياة الدنيا وما يلحقها من فناء : « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كمــاء أنزلناه من الســماء » ومثل ابليس وما اصابه من الطرد والحرمان جزاء تكبره واستعلائه : « واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس » . وهنا حذرت الآيات ابناء آدم أن يتخذوه وأعوانه أوليــاء من دون الله وبينت لهم انه وذريته اعداء لهم من أول النشــأة ، يدفعونهم الى الشر ويكيدون لهم عن طريق الاغواء ، ويصرفونهم عن أرباب النفوس الزكية ويطلبون اليهم أن يطردوهم عن مجالسهم ، لما هم عليه من فقر وضعف .

ثم تبين أن هؤلاء الذين يحاولون اضلال الناس عن الحق ليس لهم فى شأن الله ونظام خلقه من أمر ، فهو لم يحضرهم وقت أن خلق ونظم ، وهو لم يعتمد عليهم فى فعل او يشركهم فى رأى ، فكيف يجعلون لأنفسهم سلطان التوجيه ؟ .. وكيف تــروج عند الناس وسوستهم .. ؟ « ما أشهدتهم خلق الســموات والأرض ولا خلق انفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا » . فتخلوا عنهم كما سيتخلى عنهم شركاؤهم ويسلمونهم الى النار « ولم يجــدوا عنها مصرفا » . ثم تشير الآيات الى ان اعراضهم عن الحــق لم يكن ناشئا عن حاجة الحق الى دليل وانما هو الطغيان الذى يمنع صاحبه من الايمان ، ويجعله يجادل بالبــاطل ليدحض به الحق ويحول بينه وبين التفكير فى العاقبة فلا يتذكر الا اذا اســتمر به العذاب أو فاجأته سنة الأولين ، تلك سنة المنكرين من قبــل ، وسيراها المنكرون من بعد .

ثم تذكر الآيات انه لولا رحمة الله بعباده وانه يمهلهم رجاء التوبة لعجل لهم العذاب ، ولــكنه جعل لهم موعدا لن يجــدوا من دونه مصرفا عن العذاب وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا » .

وجوب التواضــع فى طلب العلم

ثم تذكر الآيات قصة التواضع فى طلب العلم الماثلة فيما جرى بين موسى والعبد الصالح : فان موسى مع علو شأنه فى المعارف

الالهية لم يمنعه علوه عن تحمل المشاق فى سبيل العلم دون نظر الى مكانة من يريد التعلم منه ، وفى هذا ما يخفف حدة الكفار على الفقراء ، ويرشد الى أن العلم أسمى من المال ، وانه لا ينبغى أن يتخذ فقر العلماء مانعا من السعى اليهم ، وتزكية النفس بعلمهم ، فهذا موسى نبى الله وكليمه ، لا يكاد يعلم بالعبد الصالح وبما عنده من علم حتى يجمع أمره على الوصول اليه كيفما كان الطريق « لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين او أمضى حقبا » .

والتقى موسى بالعبد الصالح وقدم له نفسه مستأذنا فى أن يجعل نفسه تبعا له ليعلمه : « هل اتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا » . فيطلب منه العبد الصالح التسليم فيما يرى والبعد عن الجدل ، فيطمئنه موسى على غاية الخضوع : « ستجدنى ان شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا » .. فيعده العبد الصالح بالبيان اذا هو التزم الشرط : « فان اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا » .

وعلى هذا التعاقد ركبا السفينة ، وكان أول ما فوجىء به موسى أن العبد خرقها ، وكان لخرقها هول فى نفس موسى أنساه الالتزام السابق ، فأنكر عليه ، ثم عاد يعتذر بالنسيان .

وكان الحادث الثانى أن قتل العبد الصالح غلاما ، فعاد موسى الى الانكار وعاد العبد الصالح الى اللوم ، وموسى الى الاعتذار ، وهدده صاحبه بقطع العلاقة ان عاد الى الثالثة ، وعاد الى الثالثة فأنكر عليه اقامة الجدار المائل ، وهو لقوم لم يحسنوا اليهم ، وهنا نفذ العبد الصالح تهديده لموسى وقال : « هـذا فراق بينى وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا » .

الربع الأخير

سر الأحداث التى أنكرها موسى

وفى هذا الربع يفى العبد الصالح لموسى بما التزم ، فيكشف له عن سر الأحداث التى فعلها وأنكرها عليه موسى ، وهى خرق

(*) الآيات من ٧٩ الى آخر سورة الكهف .

السفينة ، وقتل الغلام،والاحسان لقوم لا يعرفون قيمة الاحسان.
وقد كان منشأ الانكار عند موسى انه لم يعرف سببا يبيح اتلاف مال الغير ولا قتل النفس ، ولا تحمل المشقة لقوم لا يطعمون المحتاج.
ويدور البيان على ان وراء الظاهر واقعا يعلمه العبد الصالح ولا يعلمه موسى ، وهو الذى حمل العبد الصالح على فعل ما فعل ، وذلك الواقع هو ان ملكا ظالما كان يتتبع السفن الصالحة فى البحر يغتصبها من أهلها ، فرأى العبد الصالح ان يعيبها فتسلم لأهلها الفقراء : « أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر » .
وأما الغلام ، فقد علم العبد الصالح أن بقاءه مفسد لأبويه ، فاحتفاظا بسعادتهما ، وابقاء على ايمانهما قتل جرثومة شرهما :
« فأردنا ان يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة واقرب رحما » .

وفى حادث الغلام يتجلى بوضوح معنى قوله تعالى : « فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما ».
ومعنى قوله تعالى : « وما فعلته عن أمرى » فالله واسع العطاء يهب ما يشاء من رحمته وعلمه لمن شاء من عباده .

ولا متمسك لمن يدعون علم الغيب بهذه القصة ، فان احدطرفيها كان نبيا ، يوحى الله اليه ولا يقره على ضلال ولا بهتان . ومن أين لهم مثل موسى نبى يوحى اليه ، وتجرى حوادثهم على يديه .

واما الجدار فليس الشأن فيه لأهل القرية ، وانما هو لأيتام كان لهم تحته أموال ، فمحافظة عليها أقام العبد الصالح الجدار .
وتلتقى احداث العبد الصالح الى حد ما ، مع قاعدة ارتكاب «أخف الضررين » التى تبيح للانسان ان يقدم على فعل فيه شر ما ، متى علم أن فيه خيرا أكثر من شره وقديما قيل : « شر قليل فى سبيل خير كثير » .

ولقد عرف موسى من هذه الرحلة ان وراء الظاهر الذى يحيط به الانسان فى عادته باطنا تشرق عليه فيه أنوار الحقائق ، وبذلك يأخذ نفسه بالصبر فى تجريد النفس عن التأثر بالعلائق المادية ، والمنغصات البشرية ، ويصفو لله فى الدعوة الى الله .

نبأ ذى القرنين

ثم تقص الآيات نبأ ذى القرنين وهو ملك مكن الله له بتقواه وعدله أن يبسط سلطانه على قرنى المعمورة شرقا وغربا ، وكان من عدله الذى تقوم عليه الحياة وتسعد به الجماعة ذلكم المبدأ العظيم .

« أما من ظلم فسوف نعذبه ، ثم يرد الى ربه فيعذبه عذابا نكرا . وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا » .

ولا تصلح رعية لم يضرب فيها على ايدى الظالمين ، كما لا تصلح رعية لا يلقى المحسنون فيها جزاء احسانهم ، فبخس احسان المحسن لا يقل عن ضرر الجماعة عن محاباة المسىء ، كلاهما ينزل بالجماعة الى الحضيض . فاذا كانت محاباة الظالم تغرى بالظلم فان بخس الاحسان يحرج الصدر ويميت قوة النشاط . وتلك هى العبرة الخالدة فى هذا الجانب من قصة ذى القرنين ..

أما الجانب الآخر من قصته : فهو ماثل من قوته واعتماده على الله فى اغاثة المستضعفين ونصرتهم وانقاذهم من افساد المستعمرين المغيرين عليهم وعلى بلادهم بدون حق .

يصل ذو القرنين الى قوم لا تساعدهم لغتهم على حسن التفاهم معه ، ولكنه يفهم شكواهم والتجاءهم اليه : « قالوا ياذا القرنين ان يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا » ؟ .. فتدفعه عاطفة الخير الى التلبية معتمدا على ربه قال : « ما مكنى فيه ربى خير » . ويطلب منهم أن يتحملوا نصيبهم من المعونة باخلاص وقوة فلا يتواكلوا . ولا يلقوا بكل أمرهم عليه ، ويقيم ذو القرنين السد بين الجبلين ، فلا يجد المفسدون اليهم سبيلا : « فما استطاعوا ان يظهروه وما استطاعوا له نقبا » .

واجب الراعى والرعية

وهذا شأن الملوك المخلصين المحبين للشعوب ، ولا تقبل دعوى خدمة الشعوب الا اذا اقترنت بالصدق فى عمل حازم يقى الشعوب

ضرر المفسدين ، وواجب الأمة مع هؤلاء المخلصين ان يبذلوا فى معونتهم ما استطاعوا بقوة واخلاص . اما دعوى خدمة الشعوب مع الكيد لها وتاليب الأعداء عليها ، فهى دعوى يجب اخذ الحيطة منها وواجب الأمة حينئذ هو اعتمادها على نفسها وعلى قوتها النابعة من الايمان وحب الوطن .

ثم تقرر الآيات ان الله بسننه يترك الناس فى هذه الحياة يتدافعون ويتنافسون : « وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض » . ويستمر شأنهم كذلك الى يوم الدين فتنكشف لهم الحقائق بعد أن كانت أعينهم فى غطاء ، وبذلك تحذر الكافرين وتعلن أوصاف الآخرين ، وتردها الى الكفر بآيات الله والاستهزاء برسله . ثم تذكر جزاء المؤمنين الصالحين ، وتقرر سعة علم الله وسلطانه ، وعجائب كونه واسرار ملكه ، ثم تأمر الرسول بتقرير بشريته ، وان يجمل للقوم رسالته : « قل انما انا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا » .

ســـورة مَـــريَـم

الربع الأول :

كهيعص

(*) سورة مريم من السور المكية التى تقرر توحيد الله وقدرته وتنزيهه عما لا يليق به ، وتقرر عقيدة البعث والجزاء . وهى احدى تسع وعشرين سورة بدئت بحروف هجــائية . وقد لوحظ ان هذه السور تتحدث عن غريب غير مألوف ، كالقرآن ، وأنباء الغيب ، والتنويه بشأن القلم والخلق ، والايجاد على طريقة غير مألوفة .

ولعلها لهذا بدئت كلها ببدء غير مألوف .. وهو تلك الحــروف الهجائية التى تنطق بأسمائها لا بمسمياتها . وذلك ليكون البــدء الغريب قرعا للأسماع واعدادا لتلقى غرائب لا تعــرف الســنن المألوفة .

زكريا ويحيى

وقد ذكرت سورة مريم من تلك الغرائب قصتين : قصة نبى الله زكريا وولده يحيى ، وقصة السيدة مريم وولدها عيسى ، وارشدت فى أولها ان ما ستتحدث به عن زكريا واجابة دعائه ، اثر لرحمة الله به ، ولا ريب أن الخلف الصالح ، الذى يحتفظ بمكانة أبيه ويقوم بمهمته من بعده ، امتداد لحياة الأب واستمرار لأثر يتحقق نفعه فى الممات ، كما تحقق نفعه فى الحياة .

الدعاء المجاب

عرف زكريا بدراسة أحوال اقاربه أن ليس فيهم من يطمئن اليه فى القيام بدعوته ، ورأى رحمة ربه لمريم وهى فى كفالته ــ كما تحدثت عنها سورة آل عمران ــ فشجعه ذلك على دعاء ربه أن

(*) الآيات من أول السورة حتى نهاية الآية ٣٦ .

يمنحه على كبره وليا يرثه فى مهمته ؛ فابتهل بعجزه وضعفه وخوفه من أقاربه : « رب انى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا » ، « وانى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقرا فهب لى من لدنك وليا » . فاخترق دعاؤه الحجب واستجاب له ربه : « يا زكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى » ، وأكمل البشرى بالخلال الطيبة التى صاغ بها عطيته ، فأخذ السرور من زكريا مأخذه ، وعاد الى المناجاة فرحا مستبشرا : « رب أنى يكون لى غلام » . فيسمع من ربه الكلمة النافذة : « هو على هين . وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا » .. فيعود زكريا ملتمسا علامة يعرف بها حصول الحمل ، ويتعجل بها السرور الواقعى : « رب اجعل لى آية ، قال آيتك الا تكلم الناس ثلاث ليال سويا » . وقد جاءته هذه الحالة فكان لا يخاطب قومه الا بالوحى والاشارة .

وعبرتنا من قصة زكريا أن أقرب الدعاء الى الاجابة ما كان نابعا من القلب وخفيا حتى عن النفس ، ومقترنا بدلائل الذلة والحاجة ، وأخيرا ما كان مقصودا به وجه الله والنفع العام .

قصة مريم

وتذكر السورة قصة مريم وقد آخى القرآن بين القصتين فى غير موضع ، وقصة مريم ادخل فى الغرابة من قصة زكريا . ولذلك ذكرت قبلها تمهيدا لها ، وقد تحدثت سورة آل عمران عن ولادة مريم وبشارتها بعيسى وبشأنه فى بنى اسرائيل . وتحدثت سورتها هذه عن حملها بعيسى ، وعن موقفها حينما تمثل لها روح الله بشرا سويا ، وعن خواطرها النفسية حينما بشرها بالغلام : « أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا » . ومضت الخواطر تلعب بنفس مريم حتى جاء زمن الوضع فتضاعف همها ، واشتد حزنها ، لا لشك فى نفسها ، وانما لتقدير ظنون الناس فيها « يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا » . فيثبتها الله بآياته ، وينزع منها عوامل الاضطراب والخوف : « فناداها من تحتها الا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا وهزى اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا » ولكن مريم لا تزال حاجتها النفسية تلح فى معرفة ما تجيب به قومها . وهى لنفسها أعرف ، ولا تملك من أمر الناس شيئا ، فتلبيها الرحمة الالهية : « فاما ترين من البشر

أحدا فقولى انى نذرت للرحمن صوما » . وقد كان من قومها ما قدرت : « يا أخت هرون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا » . فالتزمت الصمت وأشارت الى كلمة الله ، فأجابهم بلسان بين واضح : « انى عبد الله آتانى الكتاب ، وجعلنى نبيا ، وجعلنى مباركا أينما كنت ، وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا ، وبرا بوالدتى ، ولم يجعلنى جبارا شقيا ، والسلام على يوم ولدت ، ويوم أموت ويوم أبعث حيا » .

بذلك تمت نعمة الله على مريم كما تمت على كافلها من قبل . وهكذا اجمل عيسى وهو فى المهد رسالة السماء الى الأرض . « ذلك عيسى ابن مريم قول الحق » ولكن الأهواء أخذت بالناس فى شأنه الى جهات متباينة ، فمنهم من قال به على مريم بهتانا عظيما ، ومنهم من قال به على الله شيئا ادا : « ما كان الله أن يتخذ من ولد سبحانه ، اذا قضى امرا فانما يقول له كن فيكون وان الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم » .

الربع الثانى :

قصـــة ابراهيم

(*) وتذكر الآيات ، بعد قصتى زكريا ومريم ، قصة ابراهيم ، ولابراهيم مكانة انعقدت عليها القلوب . وقد عنى القرآن بالحديث عنه عناية خاصة . فتحدث عن امامته ، وعن بنائه البيت ، ودعوة الناس التى حجه ، وتحدث عن رحلته ، وأسلوبه فى الدعوة والحجاج ، وتحدث عن كرمه ، وتضحيته بنفسه وولده ، وتحدث عن وصيته لذريته ، وتحدث عن علاقة محمد به ، وبين انه أثر دعوته ، وان رسالته من رسالته . ومن ذلك كله اتخذه القرآن حجة لمحمد على مناوئيه من مشركين وكتابيين

وقد قال بعض العلماء فى ابراهيم : « كان فتى الفتيان ، سلم قلبه للعرفان ولسانه للبرهان ، وبدنه للنيران ، وولده للقربان وماله للضيفان ، وأهله للوديان واقرأ كل ذلك فى القرآن » .

(*) الآيات من ٤١ الى نهاية الآية ٦٢ من سورة مريم .

بهذه ونحوه خلد الله ابراهيم : « واذكر فى الكتاب ابراهيم انه كان صديقا نبيا » . وكان من مظاهر ذلك انه ما من مسلم ولا كتابى ولا مشرك الا وهو يقدس ابراهيم ، وما من مسلم يصلى ليلا أو نهارا فرضا او نفلا ، الا ويدعو الله فى صلاته أن يصلى ويسلم على محمد ، وعلى آله ، كما صلى وسلم على ابراهيم وعلى آل ابراهيم. وهذا هو ابراهيم الذى يأمر الله نبيه أن يذكره لقومه ، فيخففوا من حدتهم ، وأن يذكره لنفسه فيتأسى به ، ويهتدى بهديه .

أسلوب ابراهيم فى الدعوة

وتخص سورة مريم جانبا من جوانب ابراهيم هو أسلوب الدعوة بالحلم الواسع ، والأدب الجم ، الذى من شأنه الاستيلاء على العقل المعاند والنفس العازفة ، مع وضوح الحجة وقوتها ، والتنبيه على مواضع الخلل والفساد : « يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا ، يا أبت انى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا ، يا أبت لاتعبد الشيطان ان الشيطان كان للرحمن عصيا ، يا أبت انى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا » . وهكذا يسلك ابراهيم فى دعوة أبيه طريق الحكمة والموعظة الحسنة ، فيقابله أبوه بالشدة والانكار والتهديد : « لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا » فيقابل ابراهيم تهديد أبيه بالسلام عليه والدعاء له : « سلام عليك سأستغفر لك ربى انه كان بى حفيا . وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى عسى الا أكون بدعاء ربى شقيا » . وهكذا تقف البنوة البارة من الأبوة القاسية . ومن قبل وقفت هكذا الأبوة الرحيمة مع البنوة العاقة ، دعا نوح ربه لنجاة ولده ، فعاتبه ربه وبين له انه ليس من أهله ، ولكن للأبوة مكانتها ، فلم ينكر الله على ابراهيم سلامه على أبيه ولا دعاءه له ، احتفاظا باحترام البنوة للأبوة وان كانت مشركة ضالة . « ووصينا الانسان بوالديه حسنا وان جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما » . يعتزل ابراهيم اباه وقومه ، ويلقى بنفسه فى أحضان ربه ، فيهبه الذرية الصالحة التى تسير فى طريقه وتواصل دعوته : « فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له اسحق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا » .

رســـل كرام

ثم تقفى الآيات بذكر موسى وما كان عليه من صـــفاء النفس واخلاص القلب لله ، وما خصه الله به من المناجاة والتكليم والتقريب: « وقربناه نجيا » ، ثم تذكر اسماعيل ، وما كان عليه من الصدق مع نفسه ، ومع ربه ومع أسرته التى هى درعه فى دعوته ، والصدق حلية الايمان وسبيل النجاح ، وطريق الخير والفلاح .

وتذكر ادريس وماكان فيه من مكانة الصديقية والرفعة عندالله .

وبعد ان تذكر الآيات هؤلاء الرسل كلا بخاصته ، وتشد بذكراهم ازر الرسول فى دعوته ، تعود فتجمعهم فى اطار من الشرف الالهى ، وتنسبهم جميعا الى آدم . فتربط بينهم برباط الرحم الانسانى العام ، كما ربطت الرسالة بينهم برباط الوحى الالهى .

ثم تشير الى الرباط النسبى الخاص بذرية نوح ومن كان معه فى السفينة ، والخاص بذرية ابراهيم واسرائيل ، ثم تذكر امتيازهم الدينى ومكانتهم الربانية : « اولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية ابراهيم واسرائيل وممن هدينا واجتبينا ، اذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا » .

وبازاء هذه الشجرة الربانية النورانية تضع الآيات شجرة جافة مظلمة ، انحرفت فى وجهتها عن سلسلة آبائهم الأولين ، تغلبت عليهم الشهوات ، وسخرتهم الأهواء وأنستهم حق الله ، وسجلت عليهم سوء العاقبة ، ولا نجاة الا لمن عاد اليه رشده فادرك الحق ، وسلك طريق المرضيين عند الله واولئك جزاؤهم « جنات عدن التى وعد الرحمن عباده بالغيب انه كان وعده مأتيا . لايسمعون فيها لغوا الا سلاما ، ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا » ..

الربع الثالث :

من وصف الجنة

(*) قال تعالى : « تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا » وعد الله فى الآيات السابقة الذين تابوا وآمنوا وعملوا الصالحات بالجنات ، ثم وصفها بيانا لمكانتها وعلو شأنها بأنها ليست كجنات الدنيا تزول وتفنى ، ويعتريها النقص والذبول ، وانما هى جنات عدن واقامة دائمة ، وبأنها منحة الرحمن لعباده جزاء ايمانهم بها عن طريق الوحى دون رؤية ومعاينة ، وبأنها مطهرة من لغو الدنيا وباطلها ، وان كل ما فيها غذاء للأرواح ، وسلام وأمان ومشاهدة « ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا » وتأكيدا لاستحقاقهم اياها يخلع الله عليها صبغة الميراث الذى يصل الى الانسان بحكم القانون العام الذى لا اختيار له فيه ، وكثيرا ما تستعمل كلمة « الارث » ولا يراد منها الانتقال من مالك سابق الى آخر لاحق ، وانما يراد بها ثمرة العمل والجهود وذلك كما يقال : هذا عمل يورث الشرف ، ومعناه يحصله ويخلده . ومن هذا قوله فى جزاء العاملين بالجنة : « تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا » .

ونظرا الى أن أهم أهداف البيان القرآنى تقوية الجانب الروحى ، ولفت النظر الى ما يؤازر التقى فى تحمل أعباء التكاليف ، كان من سننه المفاجأة فى أثناء الموضوعات الخاصة بما يجدد للقلب نشاطه، ويجعله على اتصال دائم بربه يستمد منه العون والقوة ، ويطمئن به على حسن معونته ، وبلوغ غايته ..

ترى ذلك فى سورة البقرة اذ يفاجىء وهو فى أحكام الطلاق والاسرة بقوله : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين » .

وفى سورة طه اذ يفاجىء — وهو فى حديث يتصل بالناس جميعا — بقوله فى شأن خاص بتلهف الرسول على تلقى الوحى : « ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليك وحيه وقل رب زدنى

(*) الآيات من ٦٣ الى آخر سورة مريم .

علما » . ومن ذلك قوله فى سورتنا على السنة ملائكة الوحى فى شأن نزولهم على النبى صلى الله عليه وسلم وطمأنتهم اياه على السير فيه الى النهاية : « وما نتنزل الا بأمر ربك ، له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا ، رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا » . .

البعث حق

ثم تنتقل الآيات وترد على حجــج المكذبين فى انكار البعث : « ويقول الانسان ائذا ما مت لسوف أخـــرج حيا ، أو لا يذكر الانسان انا خلقناه من قبل ولم يك شيئا » . ثم تفرض الآيات وقوع البعث وانه غير محتاج الى برهان ، وتترك الحديث عن امكانه الى الحـــديث عما يكون فيه لهؤلاء المنكرين من مشـــاهد العذاب ، وما يلقون من آلام : « فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا » .

غــــرور

ثم تذكر غرور الكفار بدنياهم ، واعتزازهم بأموالهم ، وزعمهم انهم متفوقون بها عن هؤلاء المؤمنين الفقـــراء الذين لا جاه لهم ولا سلطان ، وترد عليهم بذكر أسلافهم الذين كانوا أشد منهم قوة وأكثر أموالا : « واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قـــال الذين كفروا للذين آمنوا أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا ، وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا ورئيا » . وترشد الى تمكينهم من ظواهر هذه الحياة ليس الا اغراقا لهم فى الفتنة والاختبار ، وسيرون عاقبة أمرهم وأمر الذين بهم يســـتهزئون ، ســـيحصى عليهم كل شىء وسيجمعون فى ساحة العـــدل ، يوم لا ينفـــع مال ولا بنـــون : « فسيعلمون من هو شر مكانا وأضعف جندا » . « سنكتب مايقول ونمد له من العذاب مدا ونرثه ما يقول ويأتينا فردا » .

زعماء الضلال

ومن عادة الضالين فى كل زمان ان ينتحلوا لهم ائمة وزعماء ، ويصوروهم للناس أن بيدهم عزهم وفلاحهم . وعن ذلك الطريق

يضلون كثيرا من الناس عن سبيل الله . والآيات تؤكد لهؤلاء وأمثالهم ان هؤلاء الأئمة المنتحلين سيتبرءون منهم ويكفرون بعبادتهم ، يوم تنكشف الحقائق ، فيحشر المتقون الى الرحمن وفدا . ويساق المجرمون الى جهنم وردا ، ليس لهم من شافع ولا نصير .

ثم تعرج الآيات على زعم باطل ، صوره الوهم الفاسد ، والهوى المتبع لكثيرمن الطوائف ، فاتخذوه عقيدة يذيعونها وينتقصون الله بها ، ينافحون عنها ، ويفسدون بها فطرة الله التى شهد بها كونه فى تنزيه الله عن الوالد والولد : « وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ، لقد جئتم شيئا ادا . تكاد السموات يتفطرن منه ، وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا » .

صـــورتان

ثم تختم السورة بوضع صورتين متباينتين :

صورة للذين آمنوا وعملوا الصالحات يتجلى فيها ارتباط قلوبهم، وارتباط قلوب الناس بهم برباط المودة والمحبة : « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا »

وصورة للكافرين الجاحدين ، تمزق العداوة فيها ما بينهم من صلات ، وتملأ قلوبهم وقلوب الناس بالتباغض حتى يقضى عليهم بأيديهم ، ويفنى بعضهم بعضا ، فتتم عليهم كلمة الله : « وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا »

ســورة طــه

الربع الأول :

(*) وسورة طه من السور المكية الأولى ، وقد نزلت لشد ازر الرسول ، وتقوية روحه ، وعدم التأثر بما يلقى من الكيد والعناد ، ولارشاده الى أن مهمته هى فقط التبليغ والتذكير ، وسينتفع بهذا التذكير من طهرت نفسه واشرق عليها نور الفطرة الطاهرة من الاهواء وزخارف هذه الحيــاة ، وانه ليس من مهمته أن يؤمن الناس ، حتى تشقى نفسه ويضيق صدره بكفرهم واعراضهم : « ما انزلنا عليك القرآن لتشقى ، الا تذكرة لمن يخشى » .

وبعد أن ترفع عنه تبعة كفرهم ، تطمئنه على نجاح دعوته ، من جهة انها دعوة القوى القادر الذى خلق الأرض والسموات وبسط سلطانه بالرحمة على خلقه ، ونفذ تدبيره الى بواطن ماخلق ، واكتنه علمه سر القلوب واحساسها .

ثم تجمل له أوصاف الجلال والجمال فى كلمة التبليغ التى أمر بدعوة الناس اليها وتذكيرهم بها : « الله لا اله الا هو له الأسماء الحسنى » .

ثم تقص عليه ، تطمينا وتسلية : نبأ أخيه موسى وقد أرســل بما أرسل به وقوبل بأشد مما قوبل به ، فصبر وكانت له عاقبة الصابرين . وكما تذكر له قصـــة الصبر على مكايد القوم ، ونتيجته فى موسى ، تذكر له قصـــة التسرع والتأثر بالمغريات فى آدم ، وما لحقه بعدم الثبات والعزم ، وبذلك عالجت السورة رسول الله من الناحية الايجابية التى يريد الله أن يتحلى بها فى دعوته وهى الصبر ، وعالجته من الناحية السلبية التى يريد الله أن يعصم نفسه منها وهى الحزن وعدم الثبات .

(*) الآيات من ١ الى نهاية الآية ٤٧ من سورة طه .

ثم تختتم باجمال المبادىء التى تملأ قلبه بالصبر والوثوق بحسن العاقبة ، فتأمره بالصبر على ما يقولون ، وبتنزيه الله وتذكره الاعتماد عليه . وتحذره أن يمد عينه الى متعة الكافرين من زهرة الحياة الدنيا ، وتأمره بتزكية أهله وتوجيههم لعبادة الله وحده ليكونوا عونا على أداء مهمته كما كان هرون عونا لموسى .

ثم تنزع من نفسه خيال الحاجة الى الرزق وتكله الى الله المنعم الذى تكفل بحاجته ورزقه : « ورزق ربك خير وابقى » . « نحن نرزقك والعاقبة للتقوى » ثم بعد أن تزوده السورة بالأسلحة التى يبدد بها خواطر الضيق والحرج ، تغرس فى نفسه كلمة الواثق من نفسه ، ومن دعوته ، ومن عاقبته : « قل كل متربص فتربصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوى ومن اهتدى » .

معنى الشــقاء هنا

تلك سورة طه ، ومن هذا العرض الوجيز يتضح ان الشقاء المذكور فى قوله : « لتشقى » ليس هو الشقاء الجسمانى الذى نشــأ من طول اقامته فى التهجد على احدى قدميه حتى تورمت ، وان « طه » ليست نداء له بمعنى يارجل ، أو فعلا يأمره بأن يطأ الأرض بقدميه ، ليس شىء من ذلك كما تريد أن تفسره الروايات ، وليس من السهل ـــ والرسول يعرف دين الله ويسره ـــ أن يقبل شىء من هذا . كما انه لم يعهد فى القرآن الكريم نداؤه صلى الله عليه وسلم باسمه العلم ، فكيف ينادى بأعم العناوين كيا رجل ؟.. ثم كيف يقبل هذا وذاك وليس فى السورة شىء يتصل بقيامه فى عبادته على قدميه أو على احداهما ، فالشقاء هو الشقاء النفسى الذى تولت السورة من أولها الى آخرها علاجه .

و « طه » هى كأخواتها ، حرفان من حروف التهجى التى افتتح بها كثير من السور التى عرضت للتنزيل ومصدره وفائدته للناس ، وقد خوطب النبى بعدد غيرها من تلك الحروف ولم يكن الخطاب دليلا على أن الكلمة نداء له أو أمر بمعناها : « المص كتاب انزل اليك » . « الر كتاب أنزلناه اليك » هذا هو الحق ، وللروايات أن تجول وتصول فى كتب التفسير ، ولكن الله منزل الكتاب حافظه وحارسه .

قصـــة موسى

وقد تمت السورة من قصة موسى اختياره لتحمل الرسالة ، واجملتها فى التوحيد والعبادة والبعث « وأنا اخترتك ، فاستمع لما يوحى » وذكرت السلاح الذى منحه الله اياه فى الدعوة ودربه عليه وهو العصا واليد البيضاء ، وذكرت أمره بالتوجه الى فرعون الذى طغى ، وذكرت ان موسى فى سبيل تحمل الرسالة طلب الى ربه ان يقوى قلبه وأن يسهل له أمره وأن يمنحه لسانا بينا ، وأن يجعل له وزيرا صادقا ، وتلك عدة الداعى فى دعوته ، وان الله اجاب موسى الى ما طلب ، وذكره بكفالته اياه من عهد المهد الى مراحل الاعداد والتنفيذ : « اذهب أنت وأخوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى ، اذهبا الى فرعون انه طغى ، فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى » وهذا ارشاد الى طريق النجاح فى الدعوة ، قد سلكه ابراهيم من قبل ، وأمر به محمد من بعد : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة » . وقد اثار علم موسى بطغيان فرعون وشدته الخوف فى نفسه بعدم نجاحه ، فتلقى عليه تلك الكلمة التى تقتلع جبال الخوف الراسخة عروقها فى جوف البحار : « لاتخافا اننى معكما أسمع وأرى » فيمتلىء موسى ايمانا بمعية الله وحضانته ، ويتلقى من ربه مرة أخرى : « فأتياه فقولا انا رسولا ربك فأرسل معنا بنى اسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى » .

الربع الثانى :

(*) وفيه يوجه موسى وهرون الانذار الالهى لفرعون وقومه ، ولم تشأ الحكمة الالهية أن يوجه الأخذ بالعذاب الى شخص فرعون اذا كذب وتولى وانما ربطه بالتكذيب والتولى كيفمـــا كان ، ومن أى انسان كان ، وفيه تنبيه على ما يغضب الله وتلطف بالغ فى توجيه الانذار .

(*) الآيات من ٤٨ الى نهاية الآية ٨٢ من سورة طه .

اسـئلة وأجوبة

وقد سألهما فرعون عن ربهما صاحب الوحى ، ومصدر الانذار ، وسألهما عن القرون الأولى وما تم فى شأنها ، اختبارا لعلمهما ، وكأنه ظن أن الاحاطة بشئون الماضين من لوازم ادعاء الوحى والرسالة ، وقد أجابه موسى عن السؤال الاول بآثار الربوبية التى تنطق بها الفطر وتشهد بها الكائنات والنعم : « ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » أعطى كل شىء الوضع والشكل الذى به تتحقق فائدته ، ثم أودع فيه القوة التى توجهه نحو تلك الفائدة . وكان جواب السؤال الثانى أن شئون القرون الأولى ليس علمها من خصائص النبوة والرسالة ، فنحن بشر لا نعلم الا ما علمنا الله ، وانما هو من خصـائصه سبحانه وتعالى فان شاء أعلمنا بهـا وان شاء أمسكها عنا : « علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى » .

وجـوب النظر فى الآيات

ثم يذكر موسى لفرعون بعض الآثار البارزة للقدرة الالهية ، التى يجدر بفرعون أن ينظر اليها وأن يتعرف حقيقتها ومنشأها وانعام الله بها عليه وعلى الناس : « الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى ، كلوا وارعوا أنعامكم ان فى ذلك لآيات لأولى النهى » تبصرهم بالرب وترشدهم الى جلاله وعظمته ، وتدفعهم الى الايمان به ، هذا هو الجدير بالنظر فيه .

أشياء لا يفيد السؤال عنها

أما السؤال عن القرون الأولى فما فائدته ، وقد عميت الأبصار عن النعم الحاضرة ، والآثار البارزة ، وفيه ان شـأن اولى النهى والعقول الا يتركوا البحث والنظر فيما ينفع ويفيد الى البحث والسؤال عما استأثر الله بعلمه ودخل فى سر غيبه ، كحقيقة الشيطان وعلى أى شكل هو ؟.. وكيف يدخل فى جسم الانسان ؟ .. وكيف يوسوس له ؟.. وعن الجنة : ما مادتها ؟ ما سـعتها ؟ .. ما أرضها ؟ ما سماؤها ؟ .. وما الى ذلك مما يترك به الانسـان

الجاد النافع الى ما لا يضر ولا ينفع . ثم لا يفوت موسى أن يذكر فرعون بالمبدأ والموت والبعث ، رجاء أن تهزه تلك الأطوار التى تمر بالانسان فتخفض من كبريائه : « منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى » .

لجاج وحجاج

وأمام روعة الأدلة التى يرشد موسى اليها لا يملك فرعون الا أن ترتعد نفسه ، فلا يجد الا جواب المبهوت الذى يهرف بما لا يكون : « أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى » . ومتى ، وأين ، وكيف عرف ان الساحر يقدر على أن يخرج بسحره مثل فرعون وهو يزعم انه الرب الأعلى ؟ اللهم ان هى الا لجلجة الباطل ، وخذلان الافتراء .

بين موسى والسحرة

وينتقل فرعون الى توعد موسى بسحرة مثله ، ويتفق معه على يوم العرض الذى يجتمع فيه موسى بالسحرة ، ويبذل فرعون أقصى جهده فى جمع السحرة ، ويلتقى موسى بهم ، فيقول لهم فى أنفسهم قولا بليغا ، قياما بواجب الارشاد والتبليغ : « ويلكم لاتفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى » ويتركهم موسى بعد نصحهم يتنازعون ويتشاورون ، وأخيرا جمعوا كيدهم وتواصوا فيما بينهم وقالوا : « ان هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى » . ثم يقبلون على موسى ويخيرونه بين أن يتقدم أو يتقدموا ، فيشير عليهم بالتقدم : « فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى » فيوجس موسى فى نفسه خيفة والانسان مهما بلغ من الايمان فانه يرى أن العاقبة بيد علام الغيوب فيطمئنه الله على موقفه : « لا تخف انك انت الأعلى » ويلقى موسى عصاه فتلقف ما صنعوا ، وهنا تخترق الحقيقة قلوب أهل العلم وتضىء لهم الحق فى دعوة موسى فلا يملكون سوى أن يخروا سجدا : « آمنا برب هارون وموسى » . فتأخذ فرعون دهشة الحق ، ويتوعد بجلجلة الباطل : « آمنتم له قبل ان آذن لكم انه لكبيركم الذى علمكم السحر » فيعتصمون بسلطان الحق ويشرق عليهم نوره ، ولا يعبئون بتهديده ، شأن

العلماء الواثقين بعلمهم « لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض انما تقضى هـذه الحياة الدنيا » . وستلقى جزاءك ، ولا يفوتهم أن يقرروا على مسمعه الحقيقة المقبلة التى أدركوها بعلمهم .. الفرق بين ما صنعوا وما ظهر على يد موسى : « انه من يأت ربه مجرما فان له جهنم لايموت فيها ولايحيا ، ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى »

علم نافع وعلم ضار

وهكذا تكون نتيجة العلم الحق ، أما العلم الذى لا يصل بصاحبه الى كبد الحقيقة ، ولا يرفعه عن مستوى المجرمين الذين ينكرون الحق ، فجدير به أن يكون جهلا وعمى لا علما ونورا . وهكذا اتضح الحق لسحرة فرعون بعلمهم الحق ، واشتد غيظ فرعون وشدد عليهم وعلى المؤمنين الخناق فيوحى الله الى موسى ، انقاذا لقومه ، وابقاء على دينهم باجتياز البحر : « ان أسر بعبادى فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى » . وهكذا يمد الله أولياءه بما يرد كيد الأعداء . ولغرور الضالين طغيان يدفعهم الى الدمار والتهلكة ، ومن ذلك يلقى فرعون بنفسه وجنوده خلف موسى ومن معه « فغشيهم من اليم ما غشيهم وأضل فرعون قومه وما هدى » وكذلك تكون القيادة الطاغية والزعامة الضالة تودى بأمتها الى مكان سحيق .

* * *

قتل الانسان ما أكفره . ينقذ الله بنى اسرائيل على يد موسى ، ويرفعهم من الذل الذى كانوا فيه ، ولكن يعاودهم سوء التربية والنشأة ، ولا تقبل نفوسهم العزة فتمردوا على موسى الذى جاهد فى سبيلهم حتى أنجاهم وأعزهم ، والآيات تذكرهم بتلك النعمة ، علهم يخففون من شدتهم ويثوبون الى رشدهم : « كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى » ثم ترشد الى سنة الله فى العفو والمغفرة مهما تضخمت الذنوب ، وعظمت الآثام والجرائم ، ترغيبا للعباد فى الخير ، وتطهيرا لهم من الشر : « وانى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى » .

ســــورة النـمــل

الربع الأخير :

(*) هذا هو الربع الأخير من سورة النمل ، وسورة النمل من السور المكية التى عالجت أصول الدين من التوحيد والرسالة والبعث ، وهى احدى سور ثلاث نزلت متتالية ، ووضعت فى المصحف متتالية : وهى سورة الشعراء ، وسورة النمل ، وسورة القصص واشتركت ثلاثتها فى المنهاج ، بدأت كل منها فنوهت بشأن الكتاب وما تضمنه من ارشاد وهداية ، ثم سلكت مسلك العظة والعبرة عن طريق القصص الذى يوضح سنة الله فى معاملة المكذبين الأولين ، وعن طريق لفت الأنظار الى آثار القدرة الباهرة التى لا يعجزها شىء فى الأرض ولا فى السماء ، وعن طريق التحدث عن الأحوال والمشاهد الهولية التى يصيرون اليها أو تصير اليهم يوم البعث والجزاء .

وقد عرضت سورتنا فيما يختص بجانب البعث الى انكار القوم له وسخريتهم به حتى قالوا : « أئذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخرجون . لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل ان هذا الا أساطير الأولين » وحتى قالوا « متى هذا الوعد ان كنتم صادقين » وفى سبيل الرد عليهم ذكرتهم بعاقبة أسلافهم الذين كذبوا بالبعث : « قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين » . وأرشدت الرسول عليه السلام أن ينذرهم بمشــــارفة بعض أنواع العذاب الذى يستعجلونه ، وانهم سيرونه قريبا فى الدنيا بأيديهم وأيدى المؤمنين . وان ارجاءه انتظارا لايمانهم لمن فضل الله عليهم وهو عالم بما تكنه صدورهم ، ومحيط بكل غائبة ، وانه سيقضى بينهم بحكمه فلايضيق صدرك يا محمد باعراضهم : « وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم » ثم تشير الآيات الى ما يصيبهم من العذاب الأكبر الذى أعد لهم فى الآخرة .

(*) تتمة الآيات ٨٢ الى آخر سورة النمل .

وفى هذا تذكر بعض العلامات الدالة على قرب وقوعه ، وان دابة لها من غرابة الشأن ما لها ستخرج لهم من الأرض تنطق بالحق الذى أنكروه . وان الناس أعرضوا وضلوا عن آيات ربهم ، وقد تكلم الناس كثيرا فى شأن هذه الدابة وأسرفوا حتى قيل : انها ولد ناقة صالح فر الى حجر فتح له فاه حينما عقر القوم أمه فدخله فهو فيه حتى يخرج علامة من علامات الساعة ، وماذا علينا لو وقفنا فى حديثنا عن المغيبات عند القدر الذى أخبر به القرآن ، ثم تركنا ما وراءه من التفصيل الى اليوم الذى يأتى فيه تأويله وبيانه ، وليس الخبر متعلقا بعمل مطلوب من العباد ، وانما هو انذار ووعيد وتهديد .

* * *

فلتقف عند حد العبرة ، ولا نخض فيما استأثر الله بعلمه « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات . فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله الا الله ، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا » .

ثم تسوق الآيات بعد هذه العلامة ، بعض الأهوال والمشاهد التى يراها الظالمون فى هذا اليوم : حشر لآخرهم على أولهم ، وفزع واضطراب يزلزل كل ثابت . ويقطع ما بين أجزائه من صلات : « ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون ، حتى اذا جاءوا قال أكذبتم بآياتى ولم تحيطوا بها علما أماذا كنتم تعلمون » . « ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الأرض الا من شاء الله وكل أتوه داخرين » ومعناه : «صاغرين» . « وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شىء » . وهنا أيضا تكلم الناس عن « الصور » فأخذوا يشرحونه ويصفونه ، وتكلموا عمن يحمله ، وعن عدد النفخات ، أهى اثنتان ، أم ثلاث ، أم أربع ، وعن أثر كل نفخة فى الكون وعن الذين يسلمون من الفزع المقصودين بقوله : « الا من شاء الله » تكلموا فى كل ذلك بما لا يتوقف عليه فهم العبرة ولا معرفة الهدف .

وواضح أن فعلا من الله يصدر عن قدرته النافذة يقضى على هذه الحياة ، ويخرجها عن نظامها ، ويسلم أهلها الى حياة أخرى ذات نعيم دائم أو عذاب اليم .

❊ ❊ ❊

ثم أرشدت الآيات الى أن المكلفين أمام شرع الله ودينه ، اما محسن فله خير من حسنته ، واما مسىء فعاقبته الخزى والنكال : « من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار » ثم تختم السورة بهذه الوصية البالغة التى ترسم للنبى طريقه الذى يلزمه ، غير ضائق صدره بكفرهم ؛ وان هدايتهم لا تنفع احدا سواهم ، وترشده الى تعرف نعم الله والمداومة على شكرها بحمده . وان يكل القوم فى كفرهم وعنادهم اليه سبحانه وسيظهر الله خزيهم يوم يرون بأعينهم ، ما كانوا به يستهزئون : « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون » .

ســــورة القصص

الربع الأول :

(*) سورة القصص ثالثة سور ثلاث نزلت متتالية ، كما وضعت في المصحف متتالية ، الثلاث سور تتفق في منهجها وهدفها كما اتفقت في جو نزولها ، وقد لوحظ أن اللاحقة منها تكمل أو تفصل ما اختزلت السابقة أو اجملت ، ولعل ما ذكرته سورة القصص في قصة موسى وفرعون يتضح في كثير منه انه تتميم أو بيان لما أجمل في السورتين قبلهـــا .

تسمية السورة

وعلى كل فهذه السورة هي السورة الوحيدة التي انفردت بحديث موسى عن نفسه وعن سبب هجرته من مصر الى مدين ، وهو المذكور بعد تفصيله بقوله تعالى : « فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين » ، فهو قصص موسى ، وهو في مصر مع المصريين ؛ وليس قصصه مع فرعون وقومه . ولعل هذا القصص الخاص هو الوجه في تسمية السورة « القصص » وقد كانت حياة موسى من يوم أن ولد سلسلة ذات حلقات متصلة من غرائب الأحداث ، تتجلى فيها ـــ أولا وقبل كل شيء ـــ رهبة الطغاة من كل ما يتخيلون ان فيه زعزعة ملكهم ، والقضاء على سلطانهم الذي يسخرون به الضعفاء ويسومونهم به سوء العذاب .

فرعون مرعوب

فها هو ذا فرعون يعلو في الأرض ، يظلم ويستبد ، ،ويتخذ من رعيته سيوفا يضرب بعضها بعضا ، وتلك عادة الطغيان في كل زمان ومكان ، لا يدع الرعية تتماسك وتتحاب ، خوفا من تكتلها

(*) الآيات من أول السورة الى نهاية الآية ٢٨ من سورة القصص .

على ازالة سلطانه والقضاء على غطرسته وقد كان من أثر تلك الرهبة أن أوحى الى فرعون من بعض شياطينه أن وليدا يولد فى بنى اسرائيل يكون زوال الملك على يديه ، فيطير لب فرعون ويصدر أوامره الظالمة الغاشمة بذبح ذكور المواليد ، ويبعث عسسه ، ويبث عيونه لتعرف المواليد وتنفيذ الأمر فيهم كى يطمئن على عرشه وسلطانه . ويولد موسى ، وتتلقاه قابلة فرعونية ، فيتولى الله رعايته بما يرد على فرعون كيده فيه وطغيانه عليه ؛ ولا يزال رب موسى يرعى موسى حتى يعده لما يريد من زعزعة الجبروت واذابة الطغيان ، والنهوض بالمستضعفين الى مصاف الزعماء والقواد المصلحين والأنبياء المرسلين : « ان فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم انه كان من المفسدين ، ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض ، ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » وهكذا سنة الله فى الطغاة الظالمين مع الضعفاء العاملين المخلصين ، رأيناها فى فرعون وموسى ورأيناها فى محمد وأصحابه ، ورأيناها فى كثير من الأزمنة وكثير من الأمكنة . وحياتنا الحاضرة أكبر شاهد وأوضح مثال ، فهى سنة مطردة يعامل الله بها كل من حاد عن طريقه وطغى وبغى واخذ بالناس عن طرق الهدى والرشاد .

موسى الوليد

ولد موسى ونمى خبره الى فرعون واضطرب فؤاد أمه عليه ، فألهمها الله وسيلة الحفظ والرعاية ، وطمأنها وبشرها : « وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين » تحمل أمواج البحر موسى حتى تقف به على باب فرعون وأهله فينشرح لمنظره صدر زوجه وتوصى بالمحافظة عليه « قرة عين لى ولك لا تقتلوه ، عسى أن ينفعنا او نتخذه ولدا » .

من عجائب الأقدار

ومن عجائب الأقدار أن الله نجى موسى بالبحر من فرعون ، وأغرق فى البحر فرعون على يد موسى ومغزى هذا ان الله يعد

للظالم قذيفة من صنع يده ، وانه يتخذ للظالم مقبرته التى تواريه مما كان يعير به فرعون موسى . نكان موسى قذيفة أطاحت بفرعون وعرشه ، وتعاظم فرعون بالأنهار تجرى من تحته فابتلعته البحار ، وفى هذا اكبر عبرة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا .

وصدق وعد الله مع أم موسى ، فرده اليها واحتضنته وهو ولدها ، ورعاه الله حتى نبت فى بيت فرعون كريحانة زكية تنبت فى تربة مليئة بالأشواك والأقذار ، فيعمل جهده على ازالتها والقضاء عليها ، ويتعرف بأبناء النبوة وسلالة الأخيار ويربط الايمان بينه وبينهم ويعرفون فيه الملجأ عند الشدائد ، ويستنصرونه فى كربهم فينصرهم، حتى كان ما كان : « فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان انه عدو مضل مبين » .

ويتلقى موسى نبأ ائتمار القوم به فيخرج من المدينة خائفا يترقب ملتجئا الى الله أن يهديه سبيل مدين وأن ينقذه من القوم الظالمين .

خبر موسى وابنتى مدين

يصل موسى الى مدين فيجد امراتين معهما انعام تريدان سقيها ولكن يمنعهما الحياء والضعف عن مزاحمة الساقين فيتقدم اليهما ويسقى لهما . فيذهبان الى ابيهما ويخبرانه خبره ، فيرسل اليه احداهما : « ان أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ، فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين » . يطمئن موسى الى مضيفه الشيخ الذى أكرم منزله وأحسن مثواه ، ويرى الشيخ على موسى دلائل النبل والأمانة فيعرض عليه مصاهرته اياه فى احدى ابنتيه ، على أن يرعى غنمه ثمانى سنوات أو عشرا ، فيتبل موسى ذلك العرض ويتم الاتفاق ويحصل القران : « ذلك بينى وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان على والله على ما نقول وكيل » .

الربع الثانى :

(*) وفيه ان موسى عليه السلام وفى للشيخ الكبير بما التزم

(*) الآيات من ٢٩ الى نهاية الآية ٥٠ من سورة القصص .

فى رعى الغنم ، ثم ارتحل بزوجه التى عرفها بالاستحياء ، وعرفته بالقوة والأمانة ، وكانت سكنه وشريكته فى تلكم الرحلة الميمونة التى تلقى فيها رسالة الهدى والصلاح ، رسالة انقاذ المستضعفين من ضغط الطغاة الجبارين .

تكليف موسى بالرسالة

وهنا تذكر الآيات كيف وجه موسى الى مكان المناجاة الذى اختاره الله ليلقى عليه فيه نداء التكليف بالرسالة الى فرعون . يرى موسى نارا فيتوجه اليها ملتمسا دفئا بدنيا أو هاديا بشريا . فيرى النور الذى لا يلحقه ظلام ، ويسمع الهداية التى لا يعتريها ضلال ، يسمع نداء ربه : « يا موسى انى أنا الله رب العالمين » ويدربه ربه وهو بين يديه على عدته التى يعتمد عليها فى دعوته . يدربه على العصا يلقيها فتهتز كأنها جان ، ويدربه على اليد يدخلها فى جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء : « فذلك برهانان من ربك الى فرعون وملئه انهم كانوا قوما فاسقين » يتلقى موسى أمر ربه ويذكر انه قتل منهم نفسا ويخاف أن يقتلوه ، ويطلب من ربه أن يشد ازره بأخيه ، ويجيبه الله الى طلبه : « سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون اليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون »

عناد فرعون وقومه

يصل موسى الى فرعون ويبلغه رسالة ربه فيسخر فرعون منه ويأخذه الكبر والجبروت ويهزأ بالدعوة : « ما هذا الا سحر مفترى وما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين » ، ويلقى على قومه حجاب التضليل : « يا أيها الملأ ما علمت لكم من اله غيرى » ويشتد طغيانه ، فيهزأ حتى بالله رب العالمين : « فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع الى اله موسى » .

سنة الله مع أعدائه

استكبر فرعون وجنوده بغير الحق وكانت العاقبة كما صور الله : « فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين » وهكذا كانت سنة الله مع أعداء الله ، يجعلهم فى الدنيا

ائمة يدعون الى النار ثم لا يسلمون منها من كيد الله ومكره ، ويوم القيامة لا ينصرون ، وهكذا سنته مع أوليائه دعاة الحق . يجعلهم كما وعد ائمة فى الهدى ويجعلهم الوارثين : « ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما اهلكنا القرون الاولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون » . تلك قصة موسى مع فرعون وملئه ، أوحاها بجميع اطوارها الى محمد عليه الصلاة والسلام وفى كل طور منها أبلغ العظات والعبر لقوم يذكرون ، ثم قصها محمد على أهل مكة . وموقفهم منه عليه السلام هو موقف فرعون من موسى ، وخلدها الله فى كتابه لتكون العظة اتم والعبرة أشمل ، يطمئن بها فى كل زمان دعاة الحق على دعوتهم ، ويأخذ منها الضالون المفسدون ما يردهم عن طغيانهم ويبصرهم بسنة الله مع أسلافهم .

انباء أوحى بها الله

يقص الله على محمد قصة موسى . ثم يوجه اليه الخطاب بما يقطع شك النفوس فى أنه يبلغ عن نفسه ، فيذكر له انك تقص عليهم هذا القصص وما كنت مقيما فى أهل مدين تتلقى عنهم نبأ موسى فى سقى الأنعام ولا نبأه فى الزواج ، ونبأه فى الأجلين . تقص عليهم هذا القصص وما كنت مع موسى اذ ناداه ربه وحمله الرسالة ، ولكنها أحداث وقعت وتطاول عليها الزمن حتى نسى الناس رسالة ربهم وعادوا الى حلف فرعون واستكباره ، فأرسلناك اليهم تجدد لهم عهدنا وتذكرهم بآياتنا وتقص عليهم انباء المكذبين من قبل ، لئلا تكون لهم علينا حجه لئلا يقولوا : « لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين » . فبك أبطلنا حجتهم وقطعنا اعذارهم فقابلوك بما قابل به فرعون موسى ، وكانت قضية العقل تقضى عليهم بالايمان والتسليم . ولكن توارث الضلال شأن الضالين المضلين ..

والحق لا يسلم من باطل يحاول تزييفه ، واطفاء حرارته فى النفوس ، فقابلوا محمدا بما قابل به فرعون موسى وانكروا عليه حجته وقالوا : « لولا أوتى مثل ما أوتى موسى » . فهل آمنوا بما أتى به موسى ؟.. او لم يكفروا به من قبل الم يقولوا عن موسى واخيه : « سحران أو ساحران تظاهرا وقالوا انا بكل كافرون » فهؤلاء من أولئك .

ومسلك أهل الضلال واحد ، وحجتهم الزائفة واحدة تشابهت قلوبهم فتشابهت أقوالهم . أنكر أسلافهم دعوة موسى وأخيه . وأنكروا هم دعوة محمد وهما دعوة واحدة وهديهما واحد فهل لهم ان كانوا طلاب حق وهداية ان يأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما ؟ .. اما أن يكذبوا دون أن يقدموا حجة أو يأتوا بخير وهداية ، فهذا ليس منطق العقل ، ولا منطق الحكمة ، وانما هو خداع الهوى وسلطان الضلال : « ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ان الله لا يهدى القوم الظالمين » .

الربع الثالث :

استمرار الجحود بعد تتابع الحجج

(*) نوع الله لأهل مكة أســاليب الدعوة ، وألوان العظة والاعتبار ، نبه عقولهم للنظر فى آثار قدرته ولفتهم لتدبر سننه ، وكشف لهم عما أعد من عذاب مقيم ، وخاتمة سيئة للمكذبين المفسدين ، واتبع القول فى ذلك كله ببعض ، ووافاهم بحججــه وأمثاله منجما ، ليطلعوا كل يوم على حجة فيتدبروها ويعقلوها ، عظة بعد عظة ، وعبرة بعد عبرة . ومع هذا لم يؤمنوا بل ظلوا على الاعراض والتكذيب ، ولو كانوا طلاب حق لكان لهم من توصيل القول ، وتصريف الآيات ما أنار لهم السبيل ، وأوضح أمامهم الطريق ، فلا تبتئس يا محمد بكفرهم واستمرار كيدهم وحسبك فى حقية دعوتك ان الذين تلقوا دعوة الله من قبل ، وآمنوا بكتبه السابقة ، فأشرقت قلوبهم بنور الحق ، يدركون احقيتها وانها تلتقى مع دعوة اخوانك السابقين ، ويؤمنون بها كما آمنوا بما أنزل من قبلك : « الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين»

ثنــاء وجــزاء

وهنا تعرض الآيات لجزاء هؤلاء الذين ســلمت فطرهم ولم تفسدها العصبيات الضالة ، كما تعرض لأوصافهم التى استحقوا

(*) الآيات من ٥١ الى نهاية الآية ٧٥ من سورة القصص .

بها ذلك الجزاء العظيم ، فتذكر صبرهم فى مواقف الدعوة الى الحق ، وتذكر حلمهم واحسانهم لمصدر اساءتهم ، وتذكر سخاءهم وانفاقهم فى سبيل الله ، وتذكر ترفعهم بأنفسهم عن مجاراة السفهاء واعراضهم عن خطتهم والسير فى طريقهم ، والاختلاط بهم : « واذا سمعوا اللغو اعرضوا عنه وقالوا : لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين » . فتلك سنة المؤمنين السابقين ، فاستقم انت ومن آمن معك عليها ، ولا يحزنك الذى يقولون فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون . ان ايمانهم ليس مطلوبا منك ، ولا تابعا لرغبتك ، وانما هو تابع لما يعلمه الله فى انفسهم من طهر وصفاء ، وبه فقط تتحقق هدايتهم ، وبه يتوجهون الى الايمان : « انك لا تهدى من احببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين » . كان القوم يعتذرون عن عدم ايمانهم بالخوف من اقوامهم يفتكون بهم ويقضون عليهم ان هم آمنوا بمحمد ودعوته : « ان نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا » ومعناه انهم يصيرون اتباعا بعد أن كانوا متبوعين ، ويجردون من سلطانهم بعد أن كانوا ذوى سلطان مرهوب ، فترد عليهم الآيات بأن هذه حجة مهلهلة وخيال كاذب ، ووهم باطل : فالله الذى مكن لهم من حرم يأمن فيه الخائف ، ويشبع فيه الجائع ، ويجبى اليه الثمرات لا يعجزه أن يحفظهم وان يمكن لهم ضد من يناوئهم ، ولو انهم انصفوا لعرفوا ان استمرارهم على الكفر ورد الحق وانكار سبيل سنة الله لتسليط دعاة الحق عليهم وتمكينهم منهم : « وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا ، وكنا نحن الوارثين » .

ثم ترشدهم الآيات الى ان ما هم فيه من جاه ومال وسلطان مآله الى الزوال ، وانه لا يدفع عنهم شيئا من قضاء الله : « وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى افلا تعقلون » . ثم تضع الآيات أمامهم صورتين متقابلتين ، وتحكمهم فى أى الصورتين خير الى عقولهم وضمائرهم ، صورة الذين يلبون دعوة الحق وبه يؤمنون ، وصورة الذين يرفضونه وبه يكفرون : « أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين » .

ثم تذكرهم بما سيكون يوم القيامة بينهم وبين شركائهم من

محاولة تخلص بعضهم من بعض ، وتبرؤ متبوعيهم من تابعيهم ، وبما سيكون منهم حين يسألون عن موقفهم من الرسل . فتتملكهم الحيرة وتلزمهم الحجة : « ربنا هؤلاء الذين أغوينا ، أغويناهم كما غوينا » أى لم يكن لنا سلطان فى غيهم وانما عرضنا عليهم أن يغووا باختيارهم كما غوينا . « تبرأنا اليك ما كانوا ايانا يعبدون » . « ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين ، فعميت عليهم الانباء يومئذ ، فهم لا يتساءلون » .

النبوة شأن من شئون الله

وكان القوم يستنكرون أن ينزل الوحى على رجل فقير يتيم من بينهم وقالوا : « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » ، فترد عليهم الآيات بأن الاصطفاء للنبوة كالخلق ، شأنان من الشئون الخاصة بالله . فكما لا يخلق الا بمشيئته ، لا يصطفى الا بمشيئته ، فهو وحده العليم باستعداد خلقه وصلاحيتهم لما يريد: « وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة » .

ثم تعود الآيات وتذكرهم بنعم الله عليهم ، ورحمته بهم فى تنظيم الليل والنهار على وجه يمكنهم من طيب الحياة . وتحاكمهم الى الفطرة فى الاعتراف بأن لا قدرة لأحد سواه فى ذلك التنظيم ، اذ هو جعل الليل أو النهار سرمدا : « من اله غير الله يأتيكم بضياء ؟ .. من اله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه ؟ » فان استجابوا للحجة فقد آمنوا والا فقد عرضوا أنفسهم ليوم لا تنفعهم فيه شفاعة الشافعين ، ويضل عنهم ما كانوا يفترون .

الربع الرابع :

علاج لنزعات الشر

(*) يعتز الناس فى دنياهم بما لهم من جاه ومال وسلطان ، وكثيرا ما تصرفهم نعم الله عليهم الى البطر .. تدفعهم الى الطغيان، وتقطع ما بينهم وبين الله من صلات ، فينكرون الحق ، ويتزعمون

(*) الآيات من ٧٦ الى آخر سورة القصص .

عصابات الشر والفساد ، وكثيرا ما عالج القرآن هذه النزعة فى الانسان : فنبه بقصصه الى عاقبة الطغيان والبطر ، والى أن الجاه مهما عظم ، والمال مهما كثر ، والسلطان مهما اتسع ، فانه لا يرد عن صاحبه شيئا من قضاء الله اذ هو استمر على طغيانه وبطره، وانه لا ينبغى لعاقل أن يغتر ببسمة الدنيا ، فانها كما يقال : خداعة غرارة ، وانه لا نجاة من خداعها الا بالايمان والتقوى والعمل الصالح ..

قارون وأمواله

بهذا مضت سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا ، وفى سبيل تقرير هذه السنة يقص الله علينا أمر قارون : كان من قوم موسى، ولكنه لم يحفظ للقرابة حقها ، بل بغى وتكبر ، واتخذ نعم الله سبيلا لكيد عباد الله . أنعم الله عليه بمال تعجز الجماعة القوية عن حمل خزائنه ، أو حمل مفاتحه ، ونسى حق الله فى ذلك المال ، واعتقد طغيانا وكفرا انه من سعيه وكده ، وانه سيق اليه باستحقاق ذاتى، وأعانه عليه حسن تدبيره ، ونفاذ أمره وسلطانه ..

وقد حاول عقلاء قومه ارشاده ونصحه وتذكيره بأن الدنيا لا يصح الاطمئنان اليها ، وان أحوالها فى تغير وتقلب ، وانه لا عاصم من شرها الا الايمان بالحق ، والعمل الصالح ، وان سعادة الانسان انما هى فى أن يتخذ من يومه لغده ، ومن دنياه لآخرته . قدم له عقلاء قومه ما استطاعوا من نصح وتذكير ، ولكن ران على قلبه ما امتلأ به من ضلال وطغيان فأهمل مواعظهم، وخرج بطرا فى زينته ، فاغتر به ضعاف العقول ، وتمنوا أن ينالوا مكانته . ولكن العقلاء ، الذين يقدرون الدنيا قدرها ، ويدركون منها ما لايدرك غيرهم ، أخذوا يؤنبونهم على هذا التمنى ، ويؤكدون لهم أن وراء هذه المظاهر الفاتنة الفانية ما هو أسمى منها ، وهو معرفة حق الله فى نعمه وان للبغى من العواقب مايجدر بالعاقل أن يقدره ، وأن يدخله فى حسابه ، وقد صدقتهم العواقب فلم ينفع قارون ماله ولا جاهه ولا سلطانه ، وما هى الا دورة فلكية حتى كان قارون ومظاهر دنياه فى طى صحائف الماضى : « فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من

دون الله وما كان من المنتصرين . وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ، لولا أن من الله علينا لخسف بنا ، ويكأنه لا يفلح الكافرون»

حول زينة قارون

وقد ساق المفسرون كلاما كثيرا فى وصف زينة قارون ، وفى كيفية خسف الأرض به ، وحسبنا فيها ما تدل عليه كلمة «زينة» بالنسبة لما عهد فى مظاهر أرباب الجاه والمال ، وما تدل عليه كلمة « فخسفنا به وبداره الأرض » ، من زوال النعمة وانتزاع الملك والسلطان ، والذلة بعد العزة . ويعجبنى قول الامام الرازى فى هذا المقام : « والذى عندى فى أمثال هذه الحكايات انها قليلة الفائدة ، وانها فى أكثر الأمر متعارضة مضطربة ، فالأولى طرحها ، والاكتفاء بما دل عليه نص القرآن ، وتفويض سائر التفاصيل الى عالم الغيب » .

وأرجو أن ننهج فى تفسير كتاب الله هذا المنهج الدقيق الذى يحفظ علينا وعلى الناس ايماننا بجلال معانى القرآن وقصصه الحق الذى لا ريب فيه ..

قص الله علينا فى السورة قصة فرعون ، وكيف كانت عاقبة علوه وافساده ، وقص علينا قصة قارون ، وكيف كانت عاقبة بغيه ، وتكبره، وكلها سنن مطردة فىمعاملة الله للمتكبرين المفسدين. ثم ختمت السورة بالارشاد الى أساس الخير والسعادة فى الدنيا والآخرة : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين » ..

تربيـة

شأنان لابد من تربية النفوس عليهما حتى تحظى بالسعادة عند الله : تطهير النفس من ارادة الظلم والافساد فى الأرض ، واتقاء ما يغضب الله من اهمال أحكامه وشرائعه ، واهمال سننه ونظمه، وقد نبه القرآن كثيرا على أوصاف المتقين ، الذين ضمن الله لهم عز

الدنيا وسعادة الآخرة ، فعلينا أن نتدبرها لنعرف كيف تتكون التقوى فى النفوس ، وكيف تبدو آثارها فى نفع البلاد والعباد .

منزلة الرسول عليه السلام

انتقلت الآيات بعد ذلك الى شأن خاص بالرسول ، فطمأنته على المنزلة الخاصة والدرجة العالية التى أعدها الله له ، بما فرض عليه من تبليغ القرآن وبيان أحكامه ، والتى لا ينالها أحد سواه : « ان الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد » . وبقدر ما يتعلق أتباع محمد بالقرآن يكون لهم من ذلك المعاد وتلك المنزلة . ثم يلفت نظره الى أن انزال هذا الكتاب اليه وتخصيصه به لم يكن ليتوقعه فى نفسه ، وانما هو من رحمة ربه به ، ومن رحمته بعباده ، فتمسك به يا محمد ، ولا تكونن ظهيرا للكافرين . وأدع الى ربك ، ولاتكونن
فى النفوس ، وكيف تبدو آثارها فى نفع البلاد والعباد .
هالك الا وجهه له الحكم واليه ترجعون » .

سورة العنكبوت

الربع الأول :

الناس امام الدعوات الجديدة

(*) من شأن كل دعوة جديدة دينية كانت أم سياسية ، أن تجد لها فى الجماعة البشرية من يتقبلها ويؤمن بها ، ويضحى بنفسه وماله فى سبيل نشرها وتركيزها واقناع الناس بها ، وان تجد بازاء من يؤمن بها من ينكرها ويكفر بها ، ويسعى جهده فى ظاهره وباطنه فى مكافحتها والقضاء عليها . فريقان مؤمن قوى الايمان واضحه ، وكافر شديد الكفر واضحه . فاذا ما امتدت الدعوة ، وظهر سلطانها، اتصل بأهلها طمعا أو رهبا دون أن يؤمن بها فريق ثالث تزيا بزيهم فيصلى مثلا كما يصلون ، ويصوم كما يصومون مادام فى صفوفهم، وما دام فى امن من التكاليف الشاقة والتضحيات النفسية والمالية، واذا ترك هذا الصنف ، فى تردده بين ايمانه الظاهر وكفره الباطن، كان معول هدم فى جماعة المؤمنين ، وكان أشد فتكا بهم وبدعوتهم من أعدائهم البارزين .

لهذا اقتضت حكمة الحكيم ان يكون له فى كل دعوة اصلاحية من أنواع التكاليف ما يمتحن به المرء فيعرف منه الصدق ان كان صادقا، ويعرف منه الكذب ان كان كاذبا ، وبذلك تطهر صفوف المؤمنين من عناصر التخذيل ، ويعرف خبيثهم من طيبهم ، وقد عنى القرآن كثيرا بلفت الانظار الى فائدة الابتلاء بالتكاليف الشاقة من صنوف الجهاد ، وانواع البذل فى سبيل الله : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ، مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله » .

(*) الآيات من ١ الى نهاية الآية ٢٥ من سورة العنكبوت .

الابتلاء سنة فى الأولين والآخرين

وفى هذا الشأن نزلت سورة العنكبوت ، وارشدت الى أن الابتلاء سنة فى الأولين ، وماضية فى الآخرين : « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » .

عناية الله بالمؤمنين

وفى شد عزائم الصادقين المخلصين الذين يتقبلون فى جد البلايا والمحن ترشدهم الآيات الى أن الباطل ، مهما قويت أنصاره ، وعلا زبده ، مآله الاضمحلال والزوال ، ولابد أن يقع دعاته تحت سلطان الله القوى القاهر ، الذى لا مفر منه : « أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون » .

وتشد الآيات ازرهم مرة أخرى فترشدهم الى أن الله لم يمتحنهم بالشدائد حبا فى تعذيبهم أو لتحصيل كمال ينقصه وانما يمتحنهم بالشدائد تقوية لايمانهم ، وتثبيتا لسلطانهم ، وتعظيما لأجرهم عند الله : « ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه ان الله لغنى عن العالمين ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذى كانوا يعملون » ..

حقان محفوظان

وكثيرا ما يصدم الانسان ، فى عاطفة ايمانه ، عاطفة أبوة تدعوه الى الكفر ، أو تدعوه الى ترك الجهاد فى سبيل الدعوة التى يؤمن بها ، ولربما أضعفت تلك الصدمة صبر المؤمن ، وسولت له ترك ايمانه أو الاخلال بواجبه ، وفى حل هذا الاشكال ترسم السورة طريق الخلاص فتحفظ للأبوة حقها الذى لا يطغى على حق الله ، وهو الاحسان اليها ، وتحفظ لله حقه ، فلا تطاع الأبوة فى الاشراك به : « ووصينا الانسان بوالديه حسنا وان جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما » .

من أوصاف المنافقين

ثم تنتقل الآيات بعد ذلك الى بعض شئون المنافقين ، فتذكر انهم

يضعفون عن تحمل ايذاء الكفار لهم ، ويجعلونه كعذاب الله مخشيا مرهوبا ، ولا يقدرون على دفعه ، وبذلك يتزلزل ايمانهم ، وتضعف مقاومتهم . وتذكر أيضا انهم لا يظهرون فى صفوف المؤمنين الا حين تمام النصر والغلب : « ولئن جاء نصر من ربك ليقولن انا كنا معكم » .

وقد كان من صور تغرير الكافرين بضعاف الايمان أنهم يتكفلون لهم بخطاياهم ، وتحمل تبعات كفرهم ان كان هناك يوم للجزاء والحساب ، وقد عهدنا أن عناصر الفساد تغرى ضعفاء القلوب بالآمال الكاذبة اذا استقاموا معهم وعاونوهم فيما يريدون من شر وفساد ، والسورة ترشد الى هذا النوع من الخداع ، وتظهر الحقيقة جلية ناصعة : « وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم ، وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء، انهم لكاذبون » .

ابتلاء السابقين

ثم تعود الآيات فترشد بالأسلوب التاريخى الى أن الابتلاء ليس شأنا خاصا بمحمد وأمته ، وانما هو شأن عام ، تقلب فيه نوح وقومه ، وتقلب فيه ابراهيم وشيعته حتى قيل : «اقتلوه أو حرقوه» فأنجاه الله كما أنجى المؤمنين قبله ..

ولا يفوت الآيات أن تقرع أسماع المكيين أثناء هذا القصص بالتبكيت والسخرية على ما اتخذوا من دون الله أوثانا لا يملكون لهم رزقا ، وتأمرهم بالنظر فيما خلق الله .. وبالسير فى الأرض ليعلموا آثار قدرته .. وليؤمنوا بأنه رب النشأتين : الأولى والآخرة ، وانه على كل شيء قدير : « وما انتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير » .

الربع الثانى :

عاقبة صبر ابراهيم

(*) وفيه بيان عاقبة الصبر الذى اعتصم به ابراهيم فى الدعوة

(*) الآيات من ٢٦ الى نهاية الآية ٤٥ من سورة العنكبوت .

الى الله وفيما وجهه اليه قومه من كيد وايذاء ، وقد كان منها انه اكتسب قوة من عشيرته كان لها أثرها الواضح المستمر فى الدعوة الى الله ، وهو ابن أخيه لوط ، ومنها ان الله أعزه بالهجرة التى مكنت له فى القيام بدعوته ، ومنها ان الله أكرمه بذرية صالحة تنسج على منواله ، وتسير فى طريقه وتفتح للناس طريق الهدى والرشاد ، وبذلك خلد ذكره ، وامتلأت جميع القلوب بمكانته : « فآمن له لوط وقال انى مهاجر الى ربى ، انه هو العزيز الحكيم، ووهبنا له اسحاق ويعقوب ، وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره فى الدنيا وانه فى الآخرة لمن الصالحين » .

لوط وقومه

وتسير الآيات فى تصوير ابتلاء الله لعباده المؤمنين ، والتنويه بشأن جهادهم وصبرهم على الكيد والأذى ، وما كان لهم من حسن العاقبة فتذكر لوطا وما قاســاه فى دعوة قومه الى التطهير من فاحشتهم التى شذوا بها عن الفطرة ، وأفسدوا بها خلق الله حتى ضاق صدره ولم يجد ملجأ سوى الاستنصار بربه : « رب انصرنى على القوم المفسدين » فسمع الله نداءه ، وبعث اليه بجند الانقاذ ومدد النصر : « ولما أن جاءت رسلنا لوطا سيء بهم ، وضاق بهم ذرعا ، وقالوا لا تخف ولا تحزن ، انا منجوك وأهلك الا امرأتك كانت من الغابرين ، انا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون » .

عناصر الشر التاريخية

وتشـــير الآيات فى التذكير بأهل البغى والعناد ، فتذكر مدين وتكذيبهم لشعيب ، وتذكر عادا وثمود وما كان منهم لهود وصالح، ثم تذكر قارون وفرعون وهامان واستكبارهم فى الأرض وثلاثتهم من عناصر الشر التاريخية ، وقد شرحت سورة القصص السابقة علوهم فى الأرض ، وبغيهم على عباد الله .

ثم تضع الآيات أصابع المكيين ، ومن يتخذ سبيلهم فى محاربة الحق ، على حروف العاقبة التى حلت بهم ، وطوقتهم بألوان من

عذاب الله : « فكلا أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض . ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » .

عظة الحاضر ..

واذا كانت سنة الله فى أخذ الظالمين واحدة ، فنحن فى عصرنا هذا نرى ونسمع عن الرياح الحاصبة تقتلع الأشجار وتنزل بشاهقات العمائر ، وعن الصيحات تخلع القلوب ، وتستلب الأرواح من الأشباح ، وعن البراكين تنفجر وتلتهم نارها القرى والمدن ، وعن الأرض تتفكك أوصالها وتغور طبقاتها ، وتصبح مقبرة لمن عليها ، وعن الفيضـــانات ، وقد فار تنـــورها ، وأتت على كل شىء من الحضارات .. كل ذلك نراه ، ويقف الجبارون أمامه حيارى ، ثم لا يلبثون أن يعودوا فيعملوا جهدهم فى اختراع المدمرات من نفاثات وذريات بغيا من الانسان على أخيه الانسان . وكان جدير بهم اذا كانوا أرباب دين وايمان أن يبذلوا جهدهم فى وقاية خلق الله من عذاب الله القاهر بالسلم العام ، واقامة العـــدل ، والـــكف عن المظالم ..

أوهن البيوت

وبعد أن تسبح السورة هذا السبح الطويل فى سنة الابتلاء ، ومصير المكذبين الذين يفتنون الناس عن الحق ، تتجه الى المكيين ، فتصور لهم ضعف الملجأ الذى اعتصموا به ، وهو الأوثان ، عن أن يدفع عنهم كيد الله وانتقامه وتجعل مثلهم ، فى اتخاذهم اياها ، كمثل العنكبوت فى اتخاذها بيتا من تلكم الخيوط الواهية الضعيفة التى تنسجها ، فلا تدفع عنها حرا ولا بردا ، ولا تحفظها من يد تمتد اليها ، ولا ريح يهب عليها ، فكذلك ولاية الأوثان لهؤلاء ، ولاية لا تسوق اليهم خيرا ، ولا تدفع عنهم شرا : « مثـــل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا ، وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون » .

مثل يأخذ بقلوب المؤمنين ، ويريهم شاسع الفرق بين من يتخذ الجاهل ـــ الذى لا يقدر ـــ وليا من دون الله ، يعتمد عليه ويستنصره

وبين من يتخذ المحيط بكل شيء — القادر على كل شيء — وليا يعبده ، ولا يعبد سواه : « ان الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم » « خلق الله السموات والأرض بالحق ، ان في ذلك لآية للمؤمنين » .

ثم نتجه الآيات الى أهل الايمان الحق في شخص رسولهم ، وترسم لهم طريق العصمة من التردي في هاوية هؤلاء الضالين المكذبين ، فتأمر بتلاوة الكتاب ، والانتفاع بهديه وارشاده، وقصصه واخلاقه ، وأحكامه ودلائله ..

ثم توصي على وجه خاص بالصلاة واقامتها ، فهي المعراج القوي الذي يصعد به المؤمن الى ربه ، وهي العدة التي يجاهد بها المؤمن نفسه وهواه ، وهي النور الذي يرى به عظمة مولاه ، وبه يراقبه في سره ونجواه : « اتل ما أوحي اليك من الكتاب ، وأقم الصلاة ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون » .

ســـورة غافـــر

الربع الثالث :

(*) هذا هو الربع الثالث من سورة غافر ، وقد بدأها الله بجملة من صفاته ، ذات الجلال والجمال ، وكان فى مقدمة تلك الصـــفات صفة المغفرة التى يفتح بها للضالين المكذبين باب الرجوع اليه : « غافر الذنب وقابل التوب » . ولهذا البدء سميت بسورة غافر. وتسمى أيضا بسورة المؤمن ، لأنها انفردت ـــ وهى تذكر بموقف المبطلين من قوم موسى عليه السلام ـــ بذكر نصيحة مؤمن من آل فرعون ، قيضه الله للحق الذى يدعو اليه موسى من بيئة الـــكفر والعناد ، وأخذ يلقى عليهم مواعظه التى من شأنها أن تستل من قلوبهم محاربة الحق ، والاستكبار عن قبوله . حذرهم تنفيذ ماعزموا عليه من قتل موسى ، وأنذرهم عاقبة استمرارهم فى الطغيان ، وضرب لهم فى ذلك الأمثال بمصائر المكذبين قبلهم . كما خوفهم عذاب الآخرة الذى سينالهم يوم الجزاء الذى لا عاصم فيه من أمر الله ، ودعاهم الى اتباع الحق ، وتلبية الهدى والرشاد ، وأنكر عليهم تعلقهم بالدنيا الزائلة ، وبين لهم أن العاقل يجب أن يربط نفســـه بالباقى الدائم ، لا بالمتاع الفانى : « يا قوم انما هذه الحياة الدنيا متاع ، وان الآخرة هى دار القرار » .

وكان آخر نداء وجهه اليهم انكاره عليهم ـــ بعد أن تبين له الحق ودعاهم الى النجاة ـــ أن يدعوه الى ترك ذلك الحق ، وأن يدخل فى باطلهم : « ويا قوم مالى أدعوكم الى النجـــاة ، وتدعوننى الى النار » . ويشرح لهم ذلك بقوله : « تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم ، وأنا أدعوكم الى العزيز الغفار » .

وأخيرا ، وبعد أن يبذل فى نصحهم اقصى الجهد البشرى ، أعلنهم بكلمة الواثق من عقيدته ، الحريص على خير أمته ، المضحى بنفسه فى سبيل الحق الذى يدعو اليه :

(*) الآيات من ٤٦ الى نهاية الآية ٦٥ من سورة غافر .

« فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى الى الله ان الله بصير بالعباد » . وكانت عاقبته أن حفظه الله ورعاه ، وعاقبتهم أن نزل بهم الكيد والبلاء : « فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سـوء العذاب » .

العبرة من القصة

وعبرتنا من هذه القصة أمران : أحدهما أن الحق ، مهما تكتل على اخفائه ورفضه أعوان الباطل ، لابد أن يقيض الله له من بيئة المبطلين أنفسهم من يؤمن به ، ويغار عليه ، ويضحى بنفسه وراحته فى سبيله حتى يظهره الله ..

وهكذا كان حق محمد ، وباطل المشركين ، وهكذا شأن كل دعوة الى الحق أمام المبطلين فى كل عصر ، وفى كل زمان .

ثانيهما : ان على من تبين له الحق وآمن به أن يبذل غاية وسعه فى دعوة قومه اليه ، حتى اذا أيس منهم وأيقن أن لا فائدة من دعوته اياهم اعتزلهم وما يعبدون من باطل ، وعندئذ يتولى الله أمرهم ، ويوقع بهم شديد العقاب : « فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب » . « فلما نسـوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء ، وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسـقون » .

ثم تنتقل الآيات بعد ذلك ، وتصور للمبطلين موقف أتباعهم من متبوعيهم وتبرؤ المتبوعين من التابعين ، كما تصور التجاء الجميع الى جنود العذاب : « خزنة جهنم » يلتمسون منهم دعوة الله الى تخفيفه، فلا يكون الجواب سوى تسجيل الخزى والعذاب عليهم ، وتبكيتهم على انكار الحق بعد أن قامت عليهم حججه ودلائله : « أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينـات ؟ .. قالوا : بلى : فادعوا ، وما دعـاء الكافرين الا فى ضلال » .

ثم تضـمن الآيات لدعاة الحق النصر والتأييد وتأمرهم بالتزام الصبر والتمسك بحبل الله فى سبيل الدعوة اليه ، وتؤكد لهم أن معارضة المبطلين لم تكن ناشئة عن برهان ، وانما هى أثر لكبـر ملأ قلوبهم ، وستضمحل قوتهم ببركة الاعتصام بالله : « فاصـبر

ان وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشى والابكار .
ان الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم ان فى صـــدورهم الا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله ، انه هو السميع البصير » .

ثم تلفت الآيات الى آثار قدرة الله فى الكون ، فتذكر نعمته على العباد بالليل الذى فيه يسكنون ، وبالنهار الذى فيه ينتشرون ، وبالأرض التى عليها يقرون ، ومنها يرزقون ، وبالسماء التى بمائها ينتفعون ، وبنجومها يهتدون ، ثم تبرز لهم نتيجة كل ذلك التى هى دعوة الحق : « ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين . هو الحى لا اله الا هو فادعوه مخلصين له الدين ، الحمد لله رب العالمين » .

الربع الرابع

(*) هذا هو الربع الرابع والأخير من ســـورة غافر ، وقد ختم الربع السابق بجملة من صفات الجلال والعظمة ، تدعو الى افراد الله سبحانه بالعبادة والتقديس ، والاتجاه اليه وحده بالحمد والثناء على ربوبيته العامة للعالم ، وتحول بين الانسان المدرك لآثار هذه الربوبية ، وبين الخضوع لغيره سبحانه ، وتحمله على تقرير الحق فى الربوبية والعبادة فى نفسه ، وفى عمله ، وفى دعوته : « قل انى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءنى البينات من ربى ، وأمرت أن أسلم لرب العالمين » .

اللـــه الخالق

ثم تعود الآيات الى تركيز العقيدة عن طريق لفت الانظـــار الى جملة من الأدلة النفسية التى يدركها الانسان فى كيفية خلقه وفى الأطوار التى مرت به : « هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا ومنكم من يتوفى من قبل ، ولتبلغوا أجلا مسمى ، ولعلكم تعقلون » .

(*) الآيات من ٦٦ الى آخر سورة غافر .

شأنه كن فيكون

هذه الأطوار ترشد بأوضح بيان الى أن الذى تولاها ، ودرج بالانسان فيها : « هو الذى يحيى ويميت » والى أنه صاحب الأمر النافذ الذى لا يعجزه شيء فى الأرض ولا فى السماء « فاذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون » وهذا شأنه لا يتغير : نراه فى كتلة العالم، ثم نراه فى النبات ، وفى الحيوان ، وفى الانسان ، وهو شـــأنه فى الحال ، وشأنه فى المآل ، يوجد « بكن » ويميت « بكن » . «وكن فيكون» شأنه الذاتى لا يتخلف ولا يزول . واذا كان شـــأنه « كن فيكون » فالى أى جانب يذهب هؤلاء الذين ينكرون حقه الذى يغار عليه ، والذى أرسل به رسله ، وأنزل به كتبه ؟ .. ان حجج الحق قد طرقتهم ، وأخذت عليهم جميع المسالك ، ولم تجعل لهم سوى مسلك واحد سيعلمونه حينما توضع الأغلال والسلاسل فى أعناقهم ويسحبون فى الحميم ، ثم فى النار يسجرون ، ثم يقال لهم : ان ذلكم الذى أنتم فيه « بما كنتم تفرحون فى الأرض بغير الحق ، وبما كنتم تمرحون ، ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها،فبئس مثوى المتكبرين» .

وبعد أن تصور الآيات مصير المجادلين بالباطل ، هذا التصوير الذى ينزع من الصدور قلوبها ، تعود فتأمر أهل الحق بالصـــبر والثبات : « فاصبر ان وعد الله حق » وتؤكد لهم أن مرد المعاندين الى الله سواء عجل لهم العذاب أم أخره : « فاما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فالينا يرجعون » .

ثم تلفت الأنظار الى أن شأن دعاة الحق مع المعارضين هو شأن المرسلين السابقين : أوذوا فى سبيل الله وصـــبروا : « وما كان لرسول أن يأتى بآية الا باذن الله فاذا جـــاء أمر الله قضى بالحق وخسر هنالك المبطلون » .

ثم تأخذ فى التذكير بنعم الله فيما خلق لهم من أنعام ينتفعون بألبانها ونسلها . وفيما هيأ لهم من سفن تحملهم وتحمل أمتعتهم الى آفاق غير آفاقهم ، ثم توقظ فيهم ضمير الحق : « ويريكم آياته فأى آيات الله تنـــكرون » .

ثم تذكر الآيات بسنة الله مع أسلافهم الذين انكروا الحق ، وكانوا أكثر منهم واشد قوة وآثارا فى الأرض ، فما أغنى عنهم ما كانوا عليه

من قوة ، وما كانوا فيه من كثرة، بل حاق بهم ماكانوا به يستهزئون:
« فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين،
فلم يك ينفعهم ايمانهم لمـــا رأوا بأسنا سنة الله التى قد خلت فى عباده
وخسر هنالك الكافرون » .

واذا كانت عوامل الفساد ، وعناصر الشر ، ومظاهر الطغيان ،
وسنة الله التى يأخذ بها الطغاة واحدة فى كل العصور ، فليحذر
هؤلاء الطغاة ، الذين يسخرون ما أنعم الله به عليهم من علم ، وقوة،
ومخترعات فى استعباد خلق الله واســتعمار أوطانهم ، فليحذروا
غضبة الله للحق ، وغيرته على عباده ، فتلك سنته ، ولن تجــد
لســـنته تبديلا .

سورة فصّلت

الربع الأول :

(*) سورة فصلت ، وتعرف بسورة السجدة ، هى السورة الثانية من سور سبع بدئت بحرفى « حم » وعرفت لذلك فى القرآن الكريم باسم الحواميم ، وقد نزلت مرتبة متتالية ، ووضعت فى المصحف كما نزلت ، وهى كلها تؤكد ان القرآن تنزيل من الله الجامع لصفات الجلال والجمال ، من العزة والحكمة والعلم والرحمة : « تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم » . « تنزيل من الرحمن الرحيم » . « تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم » .

القرآن وحى الله الى رسوله

ومعنى هذا ان القرآن ليس — كما يزعم المبطلون — من سحر الكهان ، ولا من اساطير الاولين ، ولا من مفتريات محمد ، ولا من تعليم بشر ، وانما هو وحى من الله أنزله على رسوله ، يقرر به أصول دينه من الايمان بوحدانيته ، والايمان بالوحى والرسالة ، والايمان بالبعث والجزاء ، وقد لفتت جميعها فى سبيل ذلك الى آثار الله ونعمه فى الأنفس والآفاق الدالة على قدرته النافذة ، وعلمه المحيط ، وحكمته البالغة ، كما انذرت ورغبت . أنذرت بالعذاب الذى حل بالأمم التى كذبت رسلها ، وبالعذاب الذى أعد لهم يوم البعث والجزاء ، ورغبت بالحياة الطيبة فى الدنيا ، وبالنعيم الدائم فى الآخرة ، وكثيرا ما تضمنت تحليل نفسية المكذبين ، وصورت اعراضهم ، وجنايتهم على عدم استعدادهم لسماع الحق والحكمة تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم ، وتهدئة لنفسه ، ونفوس اصحابه المجاهدين .

(*) الآيات من ١ الى نهاية الآية ٢٤ من سورة فصلت .

عـــناد

وها هى ذى سورة فصلت ، قد وضحت كثيرا من مواقفهم أمام الحق الذى يدعوهم اليه ، وكان من أبرز ما فصلته تصوير اعراضهم عنه ، وشدة نفورهم منه بقولهم : « قلوبنا فى اكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل اننــا عاملون ». يصفون أنفسهم بأن قلوبهم فى أغطية محكمة فلا ينفذ اليها شــماع من الدعوة ، وبأن آذانهم فيها وقر وثقل ، فهى لا تحمل الى قلوبهم صوتا من الحق ، وبأن بينهم وبين الداعى — محمد عليه السلام — حجابا مانعا من التفاهم وتبادل الرأى . والمعنى فى ذلك كله انهم طمسوا استعدادهم ، وطمسوا على أنفسهم سبل الحق .وتصوير اعراضهم بهذا النحو يطابق تماما تصويره بقوله تعالى : « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة » . وان اختلف القصد والهدف ، فالقصد فى آية الختم بأنهم بأهوائهم أعرضوا عن الحق ، وزين لهم الشــيطان ذلك الاعراض حتى ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون . والقصــد فى آية الأكنة ، أنهم يحقرون شــأن الدعوة ، ويعلنون أنها ليست مما يســتحق أن تفتح له القلوب أو تسمع له الآذان ، أو ترفع بينهم وبين صاحبها الحوائل .

أوامر الله لنبيه

أمام هذا التصوير ، الذى يصورون به اعراضهم عن الدعوة ، يأمر الله نبيه أن يقرر لهم أولا مهمنه،وانه ليس الا بشرا يوحى اليه، فيبشرهم أن آمنوا ، وينذرهم أن اعرضوا ، وليس عليه شىء من تبعة اعراضهم وتكذيبهم : « قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد فاستقيموا اليه واستغفروه وويل للمشركين » .

وتأمره ثانيا : أن يقرر لهم ان اعراضهم عن دعوة الحق ليس الا كفرا بما شهدت بوحدانيته وقدرته ظــواهر التــكوين واطواره فى الأرض وما أودع فيها من جبال واقوات ، وفى السماء وما نظمت عليه من كواكب ومصابيح : « قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين » . فان هم استعملوا عقولهم ، وآمنوا بما تنطق به هذه الظواهر فقد أفلحوا وسعدوا ، وان هم أعرضوا : « فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ».

وتأخذ الآيات فى بيان ما كان لهؤلاء من قوة واستكبار فى الأرض، ومع ذلك لم تغن عنهم قوتهم ولا استكبارهم ، بل اخذهم الله بالعذاب الهون : « ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ».

وتأمره ثالثا : ــ بعد هذه المثلات الخالية ــ أن ينذرهم بما يصيرون اليه يوم القيامة ، يوم يشهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون . يوم ينكرون على جوارحهم ــ التى استخدموها فى الشر والفساد ــ أن تشهد عليهم بما أفسدوا ، فتقر لهم الجوارح ان الله ، الذى أنطق كل شىء بوحدانيته ، قد أنطقها بجرائمهم ، وانهم كانوا بحالة من يظن أن الله تخفى عليه شئونه : « ولكن ظننتم ان الله لا يعلم كثيرا مما تعملون ، وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين » .

وهكذا تكون نهايتهم ، أجزعوا واستغاثوا ، أم صبروا فى ظل من رجاء العفو والمغفرة ؟ .. « فان يصبروا فالنار مثوى لهم ، وان يستعتبوا فما هم من المعتبين » .

الربع الثانى :

اخوان السوء

(*) صور الربع السابق اعراض المشركين عن الدعوة . وبين مصيرهم يوم القيامة وما يلحقهم من الخزى والخسران . وفى هذا الربع ترشدهم الآيات الى أن هذا المصير السىء لم يكن اثرا لطبعهم على الضلال ، ولا اكراها لهم من الله عليه ، وانما هو أثر لتأثرهم باخوان السوء ، الذين زينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم من الأهواء والشهوات ، وعبرتنا فى ذلك ان الشر كثيرا ما يصيب الانسان من وقوعه تحت تأثير البيئة الفاسدة المحيطة به. فعلى العقلاء ان أرادوا حياة طيبة أن يتخيروا الأصدقاء ، وأن يطهروا مجتمعهم من عناصر الشر ، وبذور الفتن ، حتى لا يكون لها سلطان على قلوبهم .

(*) الآيات من ٢٥ الى نهاية الآية ٤٦ من سورة فصلت .

وكما صور الربع الأول اعراض المشركين عن الدعوة فى أنفسهم بقولهم : « قلوبنا فى أكنة » ، صور هذا الربع طريقتهم فى محاولة صرف الناس عنها : « لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون » . يحذرونهم عن الاستماع اليه ، والانصات له ، مخافة أن تصل الى قلوبهم حكمه السامية ، ويرسمون لهم أسلوب ذلك بما يخفى عليهم فضله : « والغوا فيه » : أطلقوا عليه السنتكم ، أشيعوا السخط عليه ، انشروا عنه الأباطيل .. وهذا شأن عرفه المضللون طريقا لاخفاء الحق فى كل زمان يغمرونه بالأراجيف والمفتريات ، ويتتبعون أهله بالمقاطعة والتهريج أينما حلوا ، وأينما ارتحلوا . والله يتوعد المرجفين الذين يعملون على اخفاء الحق بالعذاب الشديد ، وسيكشف للتابعين افساد المتبوعين لهم : « ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والانس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين » .

المؤمنون فى رعاية ربهم

ثم تشد الآيات أزر المؤمنين وتؤكد لهم أنهم — بايمانهم واخلاصهم فى الدعوة ، واستقامتهم على حدودها — فى حماية الله ورعايته ، يقوى قلوبهم ويطرد عنهم بواعث الخوف والحزن ، ويمنحهم كل ما يطمئنهم ، ويبشرهم بالفوز والفلاح : « ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون » ثم ترشدهم الى أنهم بدعوتهم الى الله فى منزلة لا يوجد فى حكم الله وقضائه أسمى منها : « ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال اننى من المسلمين » . كما ترشدهم الى ما يحفظ عليهم تلك المنزلة من تحلية النفس بالصبر والاحتمال ، ومقابلة السيئة بالحسنة ، وتطهيرها من نزغات الشيطان التى يزل بها المؤمن عن مقتضى الايمان وتمنعه منزلة السمو بالدعوة الى الله : « واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه هو السميع العليم » .

بعض دلائل الوحدانية

ثم تعود الآيات فتلفت الأنظار الى بعض دلائل الوحدانية فى علوى

العالم وسفليه ، وان كل ما فى الكون خاضع لقدرته وسلطانه ، فلا يصح السجود لغيره مهما عظم : « لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذى خلقهن » وترشد الى أن العدول عن مقتضى هذه الأدلة انحراف عن الحق ، والحاد فى آيات الله ، وتتوعد هؤلاء الملحدين باطلاع الله على سرائرهم ، والعوامل التى دفعتهم الى هذا الالحاد : « ان الذين يلحدون فى آياتنا لا يخفون علينا ، أفمن يلقى فى النار خير ، أم من يأتى آمنا يوم القيامة ، اعملوا ما شئتم انه بما تعملون بصير » .

تسلية

ثم تنتقل الآيات الى تهوين الأمر على الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفى سبيل ذلك ترشده الى أن موقف قومه منه هو موقف الأمم الماضية من اخوانه السابقين ، وما عليه الا أن يصبر كما صبروا : « ما يقال لك الا ما قد قيل للرسل من قبلك أن ربك لذو مغفرة وذو عقاب اليم » فلا تسمع لمقترحاتهم ، ولا تهتم بكيدهم ، فهم قوم لا يثبتون على حال ، ولا يرضيهم الا الشهوات والأهواء ، ولقد أنزلنا عليهم قرآنا عربيا بلسانهم ، فيه التفصيل والبيان ، والحجة والبرهان ، فأعرضوا عنه وقالوا فى آذاننا وقر : « قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر ، وهو عليهم عمى ، أولئك ينادون من مكان بعيد » .

ثم تختم الآيات بتقرير مبدأ الحكمة والعدالة فى المؤاخذة بالأعمال صالحها وسيئها ، وان نفسا لا تتحمل وزر أخرى : « من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد » .

الربع الثالث :

(*) ومن أساليب القرآن فى الدعوة التهديد والانذار بأهوال الساعة وشدة العذاب فى الآخرة ، وقد جاء ذلك فى عبارات مختلفة ، وعلى الوان وأنحاء متعددة ، تصف الآيات مقدمات الساعة تارة ،

(*) الآيات من ٤٧ الى آخر السورة .

وتصف الحشر تارة أخرى ، وتتحدث عن العذاب ثالثة ، وعن احوال المكذبين مع شركائهم او مع الحق رابعة ، وهكذا الى آخر ما نراه فى القرآن الكريم ، ومما جاء فى ذلك من سورتنا « ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون » . « ويوم يحشر أعداء الله الى النار فهم يوزعون » . « فان يصبروا فالنار مثوى لهم وان يستعتبوا فما هم من المعتبين » . « افمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة ؟ » .

وكان القوم يقابلون الحديث عن الساعة ، وعن ذاب الآخرة، تارة بالانكار والتعجب من الأخبار به ويقولون : « ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر » ، « من يحيى العظام وهى رميم » . وتارة بما يفيد انهم شاكون متحيرون : « ما ندرى ماالساعة ، ان نظن الا ظنا وما نحن بمستيقنين » . وكثيرا ماكانوا يسألون عن وقتها ، ويستعجلون عذابها ، تهكما واستهزاء ، وكان القرآن فى كل هذه المواقف يجيبهم بالحجة الداحضة التى لا تدع مجالا للانكار ولا للشك ، وكان — فى سؤالهم عن الوقت — يرد عليهم بأن علمه مما استأثر الله به ، ولا يطلع عليه أحد من خلقه، ومن ذلك ما جاء فى هذا الربع : « اليه يرد علم الساعة »،والعبارة واضحة فى ان علم الساعة لا يعلمه أحد سواه . وقد ضمت الآية اليه بعض الأحداث الكونية التى تأخذ حكمه ، وهم بأنفسهم يعترفون بأنه لا يعلمها أحد سواه : « وما تخرج من ثمرات من أكمامها (أوعيتها) وما تحمل من أنثى ولا تضع الا بعلمه » . وقد جاء ذلك المعنى فى كثير من الآيات : « ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين » . « قل انما العلم عند الله وانما أنا نذير مبين » . « يسألونك عن الساعة أيان مرساها ، قل انما علمها عند ربى ».

الحكمة فى اخفاء الساعة

والحكمة فى اخفاء الساعة هى الحكمة فى اخفاء الآجال ، هى الحكمة فى اخفاء الأحداث والنوازل ؛ فان الانسان لو علم بها لخارت قواه ، وانسد أمامه باب الأمل ، وحيل بينه وبين العمل ، وصار فى حالة تشبه القهر والالجاء . وبعد أن أوضحت لهم الآيات شأن الساعة ، أخذت بهم الى التذكير بما ينفعهم ، فذكرت لهم يوم

ينادون : اين الشركاء الذين كانوا يتخذونهم أولياء من دون الله ، وما يجيبون به عن هذا السؤال ، يتبرءون منهم ، ويسجلون على انفسهم أن احدا منهم لم يشــهد لهؤلاء بالعبودية ، ولا بالولاية : « وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل وظنوا ما لهم من محيص »، وهذا نوع من الحيرة والتردد ، يلازمهم فى الآخرة ، كما كان يلازمهم فى الدنيـــا ..

الايمان مبعث الشكر والصبر

ومن هنـــا تذكر الآيات ان الانسان الذى لم يعتصم بالايمـــان مبعث الشكر على النعماء ، ومبعث الصبر على الضراء ، تتردد مواقفه فى الخير والشر والنعمة والنقمة بين الفرح والبطر ، والهلع والجزع ، بين الالتجاء الى ربه فى وقت الشدة ، ونسـيانه وقت الرخاء ، بين الرضا عند الاكرام والانعام ، واليأس والقنوط عند التقتير والابتلاء ، بين دعاء ربه واستغاثته ، والاعراض عنه صلفا وكبرا ، وفى تلك الأحوال النفسية ، التى تحللها البشرية الحيوانية، تقول سورتنا : « لا يسأم الانسان من دعاء الخير ، وان مســه الشر فيئوس قنوط ، ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مســته ليقولن هذا لى ، وما اظن الساعة قائمة ، ولئن رجعت الى ربى ان لى عنده للحسنى » . « واذا أنعمنا على الانســان أعرض ونأى بجانبه ، واذا مسه الشر فذو دعاء عريض » . وكثيرا ما أكد القرآن هذه النفسية التى يحملها القلب الذى لم يعتصـم بالايمان بالله : « فلما نجاهم اذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق » . « ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى ، انه لفــرح فخـــور » .

اما العلاج فهو ما جاء فى قوله تعالى : « الا الذين صبروا وعملوا الصـــالحات ، أولئك لهم مغفرة واجر كبير » . وفى قوله : « ان الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا الا المصلين » .

ثم تختم السورة بأن انكارهم للحق قبل النظر والتفكير — وهو على الأقل يحتمل ان يكون من عند الله — ليس فى نظر العقلاء الا

ضلالا وفسادا ليس بعدهما من ضلال ولا فساد : « أرأيتم ان كان من عند الله ثم كفرتم به من اضل ممن هو فى شقاق بعيد ؟ » .

وبأن الأدلة على حقية القرآن ، وانه من عند الله ، لا تقف عند هذا الحد فيما تجلى لهم من أسرار الكون وخصائصه ، وعجائب الله وتصاريفه ، بل ستتضح ، وسيرونها فترة بعد فترة ، وطورا بعد طور ، كلما تقدمت مدارك الانسان وخاض غمار الكون فعرف خواصه ، وسنن الله فيه ، فى الآفاق والأنفس : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » ، صنع ربك الشهيد على كل شيء وهم فى مرية من لقائه ، انه بكل شيء محيط .

ســورة الشورى

الربع الأول :

(*) هذه هى السورة الثالثة من السور السبع ، التى عرفت فى القرآن الكريم باسم الحواميم ، وهى تشارك زميلاتها فى الهدف والمنهاج ، فهى تؤكد أن القرآن ما هو الا تنزيل من الله الجامع لصفات الجلال والجمال ، والذى خضعت له الكائنات « الله العزيز الحكيم » ، « وهو العلي العظيم » وانه ليس الا وحيا أوحى به الله الى رسوله ، لينذر الأقوام الذين فسدت فطرهم ، واتخذوا من دون الله أولياء يعبدونهم من دونه ، وهو الولى الذى لا ولى سواه : « وهو يحيى الموتى وهو على كل شىء قدير » ..

وأرشدت السورة مع هذا كله الى أن وحى الله الى عباده حقيقة ثابتة ، أخذت حظها من الوجود بالنسبة لمحمد ، وبالنسبة لاخوانه السابقين ، فليس الوحى شأنا خاصا به ، ولا هو بدعا من الرسل:
« كذلك يوحى اليك والى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم » .
« وكذلك أوحينا اليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها » .

الوحى روح

ثم تصف الوحى بأنه روح يحيى القلوب الميتة ، ويهدى الى صراط مستقيم ، وانه فضل من الله على محمد ، وأن حالة محمد قاطعة فى ان القرآن ليس من عنده وانما هو من عند الله : « وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ، ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا ، وانك لتهدى الى صراط مستقيم » .

ثم تقرر السورة أن الوحى من لوازم حكمة الله ، ومتناول قدرته التى ظهرت آثارها فى الخلق والرزق : « فاطر السموات والأرض » « له مقاليد السموات والأرض » .

(*) الآيات من ١ الى آخر الآية ٢٦ من سورة الشورى .

وحـــدة دين الله

ثم تبرز السورة حقيقة ضل فيها الناس بغيا وعدوانا ، فذهب فريق الى انكارها ، وفريق الى الايمـــان بها لبعض الرســـل دون بعض . تلك الحقيقة هى أن الدين الذى أوحى الله به الى محمد هو الدين الذى أوحى به الى نوح ، والى ابراهيم وموسى وعيسى، ووصاهم باقامته ودعوة الناس اليه ، وعدم التفرق فيه ، وقامت فيه حجة كل رسول على قومه ، ولكن الناس كبر عليهم ، حقـــدا وحسدا ، أن يؤمنوا بتلك الحقيقة المتحدة ، فأنكروها ، أو فرقوها، وزعموا ان الأديان تتعدد بتعدد الرســـل ، ان لكل دين أصــــولا واتباعا ، واخذوا باسم الدين يتحاربون ويتســـافكون ، والدين منهم برىء ، والله من ورائهم محيط ، فدين الله واحـــد ، وانكاره من أحد الأنبياء انكار له من جميعهم ..

وقد عرض القرآن كثيرا فى مكيه ومدنيه لتقرير الوحدة الدينية ، وقرر الايمـــان بكل الرســـل وبكل الكتب ، وجاءت فى ســـورتنا « الشورى » واضحة جلية : « شرع لكم من الدين مـــا وصى به نوحا والذى أوحينا اليك ، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم اليـــه » .

رسم منهاج الدعوة

ثم تتجه الســـورة بعد تقرير هذه الحقيقة الى الرســـول عليه السلام ، واضع اللبنة الأخيرة من هذا البناء الالهى ، المكمل لشرائع الله ، على حسب استعداد خلق الله . تتجه اليه عليه الصلاة والسلام ، فترسم له منهاجا للدعوة غاية فى القوة ، منهاجا يزيد المؤمنين ايمانا على ايمان ، ويزيد المعاندين المغرقين رجســـا على رجس ، منهاجا يتكون من عشر فقرات كانت عدته فى الهجـــرة ، وعدته فى الدعوة ، وعدته فى الوصول الى الغاية : « فلذلك فادع، واستقم كما أمرت ، ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم . لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا ، واليه المصير ».

انتصار الحق

ثم تطمئن السورة بعد ذلك دعاة الحق ، الذين يلتزمون هــذا المنهاج ، بأن معارضة الجاحدين لتلك الحقيقة ، المشوهين لها — بعد أن أخذت الى القلوب الحية سبيلها — معارضة ضائعة فاشلة: « والذين يحاجون فى الله من بعد ما استجيب له ، حجتهم داحضة عند ربهم ، وعليهم غضب ولهم عذاب شديد » .

فالحق متى أخذ مكانا ما ، سرت روحه ، وانتشر نوره ، وسار بقوته حتى يعمل عمله فى النفوس دون حرب ولا نضــال وهكذا انتشر الاسلام عن طريق السياحة ، وعن طريق التجــارة ، وعن طريق الخبر ، دون حرب ولا نضال ، ولا يزال يغــزو القلوب ، وتتفتح له الأفئدة دون اكراه أو الجاء ..

ثم أخذت الآيات فى تبكيتهم على انكار البعث ، واتخاذ غير الله أولياء مع ظهور الآيات والدلائل ، وتفتح لهم باب الرجاء فى العفو والمغفرة اذا هم اقبلوا عليه ، وخلعوا أنفسهم مما هم فيه ، وآمنوا بما أنزل الله : « وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفــو عن الســيئات ويعلم ما تفعلون ، ويســتجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله ، والكافرون لهم عذاب شديد » ..

الربع الثانى :

المؤمنون لا تفتنهم الدنيا

(*) جاء فى الربع السابق ، ان الله يجيب حاجــة الذين آمنوا ويزيدهم من فضله وان للكافرين عذابا شديدا ، ومع ذلك فقــد كان الكافرون فى بسطة من الرزق وسعة من العيش ، والمؤمنون على عكس ذلك ، وقد يكون هذا هو المشاهد فى جل الأزمان ان لم يكن فى كلها ..

وفى هذا الربع تكشف الآيات عن شأن فى الانسان ، يرجع هذا الشأن الى انه اذا كثر ماله وجاهه شغل به عن مقومات نفسه

(*) الآيات من ٢٧ الى آخر السورة .

وروحه ، وكثيرا ما يندفع الى البطر والطغيان ، ويتعرض بذلك الى عاقبة الطغاة من الحرمان المطلق ، والعذاب الأليم ، فكان من الحكمة الوقوف بالمؤمن — فيما يجر الى الطغيان — عند حد القصد والاعتدال ، وهو فيما يقوم بالحاجة ، ويحقق لكمال الذى لايؤدى الى الطغيان .

حكمة فى بسط الرزق وقبضه

ومن هنا نرى أن المؤمنين ، فى الأعم الأغلب ، أقل من غيرهم فى متعة الحياة الدنيا وزينتها ، رحمة بهم وحرصا عليهم ولا كذلك الذين جحدت قلوبهم ، واستولت الدنيا على نفوسهم : « ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ، ومعارج عليها يظهرون ، ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون ، وزخرفا ، وان كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين » .

بهذا طمأن الله المؤمنين ، قرر انه لو بسط الرزق لهم ، كما بسط لغيرهم ، لمالوا الى الشهوات وانحرفوا عن الطريق المستقيم ، وهو لذلك يمد اليهم يده بالقدر الذى يعلم انه يقوم بحاجتهم وعزتهم ولا يطغيهم ، وليس ذلك عجزا عن أن يمنحهم كما يمنح غيرهم ، ولا بخلا عليهم بما لم يبخل به على غيرهم فهو القادر على العطاء لغير حد ، وهو الذى بيده أسباب الرزق وهو الرءوف الرحيم بالمؤمنين ، فهو الذى ينزل الغيث ، وهو الذى خلق السموات والأرض وسخرها للانسان ، وبث فيهما من كل دابة ، وهو الذى وفقهم الى صنع السفن واجرائها فى البحار ، وكل ذلك ليس الا متاع الحياة الدنيا ، لا يحب أن يقف عنده للمؤمنين . وانما الذى يحبه لهم هو المتاع الباقى الذى لا ينفد ، والذى لا يحصل عليه الا من جمع خلال الخير ، ولم يربط قلبه بالمتاع الزائل ؛ بل جعل همه الايمان بربه ، والتوكل عليه ، وتطهير باطنه وظاهره من الاثم والفواحش ، وانقياده النفسى لمولاه ، وأداء حقه بالصلاة الخاشعة ، وحق اخوانه الفقراء بالزكاة المطهرة . ثم عرف لنفسه عزة المؤمنين ، ولم يخضع لبغى ولا عدوان ، وانما انتصر لنفسه دون اسراف ولا طغيان : « وجزاء سيئة سيئة مثلها » . « انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق » .

اجملت الآيات بهذا صفات المرضيين عند الله ، وهى كلها صفات تتصل بتقوية الجانب المادى عن طريق القوة فى الجانب الروحى، والذى يجدر التنبيـه اليه ان الله ذكر بين تلك الصفات مبدأ « الشورى » . واشار الى انه شأن المؤمنين : « والذين استجابوا لربهم واقاموا الصلاة ، وأمرهم شورى بينهم ، ومما رزقناهم ينفقون » .

مكانة الشورى فى الاسلام

وضعه بين اقامة الصلاة والانفاق من الرزق فى سبيل الله ، وسميت السورة بسورة « الشورى » . وكان فى هذا وذاك ابلغ دلالة على مكانة الشورى فى شريعة القرآن ، وحسبها انها عنصر من عناصر الشخصية الايمانية لحقة ، نظمت فى عقد حياته طهارة القلب بالايمان والتوكل ، وطهارة الجوارح من الاثم والفواحش ، ومراقبة الله باقامة الصلاة والانفاق فى سبيله ، والانتصار على البغى والعدوان ..

وبعنصر الشورى قضى الاسلام على عدو الانسانية الفاضلة ، وهو الاستبداد بالرأى واحتكار التشريع والتصريف والادارة ، وسلب اهل الراى والكفايات حق ابداء رأيهم ، وآثار كفاياتهم . والقرآن لا يريد من الشورى — حين يضعها هذا الوضع — هذه الصورة الهزيلة التى يتواضع عليها أرباب البغى والاحتكار ، ويتخذونها ستارا للطغيان ، وسلب الحقوق ، وانما يريدها حقيقة نقية بريئة مما يكدر صفوها ، ويفقد خيرها ..

وبعد أن تعرض الآيات شيئا من خلال المجادلين فى آيات الله على النحو الذى عهد كثيرا فى القرآن عامة ، وفى هذه السور السبع خاصة ، توجه خطاب الدعوة والتحذير الى الناس جميعا : « استجيبوا لربكم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله ما لكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير »وتقرر للنبى صلى الله عليه وسلم ما به يهدأ روعه ، ويطمئن قلبه ، تقرر له مهمته ، وانه ليس عليه شىء من تبعة كفر الكافرين ، واعراض المعرضين . « فانأعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا ان عليك الا البلاغ » .

ثم تؤكد له اخيرا ان الله قد جعل له القرآن نورا يهدى به الى صراط مستقيم . « صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض الا الى الله تصير الأمور » .

ســـــورة الملك

سورة الملك هى أول سورة من سور الجزء التاسع والعشرين من القرآن الكريم ، والجزء كله من القسم المكى الذى نزل فى أول أطوار الدعوة تقريرا لأصولها الثلاثة : عقيدة التوحيد ، وعقيدة الرسالة المحمدية ، وعقيدة البعث والجزاء .

والله ذو الفضل العظيم

فى القرآن الكريم سورتان افتتحهما الله بتمجيده وتعظيمه ، وعبر عن ذلك بكلمة « تبارك » الدالة على الاختصاص بمعانى السمو المطلق فى الذات والصفات وبمعانى الكثرة والزيادة فى الفضـــل والاحسان ، ولفضل الله على عباده مظهران :

هذا الكون الذى خلقه وابدعه واودع فيه من الأسرار والمنافع ما تقف العقول دون اكتناهه والاحاطة به .

وهذا الكتاب المتلو الذى ختم الله به رسالاته وانزله على عبده محمد صلى الله عليه وسلم ، يوجه به العقل البشرى الى معرفة الحق فى الوجود ، والى خوض غمار الكون والتنقيب عن أسراره ومنافعه .

فهما كتابان :

كتاب صامت ينظر فيه الانسان فيعرف ويؤمن وينتفع ..

وكتاب متلو يقرؤه ويتدبره فينبهه الى ما فى كتاب الـــكون من آيات وعجائب ومستودعات هى للانسان مسخرات .

وبهذين الكتابين ، الصامت والمتلو ، تجلت آثار ربوبيته للعالم ، مادية حسية ، وروحية عقلية ، وقد جاءت أول كلمة فى الكتاب المتلو « الحمد لله رب العالمين » تعبيرا صادقا عن هذه الحقيقة .

وبهذين الكتابين كمل انعام الله على الانسان ، وعظم فضـــله واتسع احسانه ، وبهما هيىء له أن يصل الى كماله المادى عن طريق الانتفاع بما سخر له فى كتاب الكون ، والى كماله الروحى من طريق ما أرشد اليه كتاب الوحى فى العقيدة والسلوك .

* * *

وقد أنزل — في لفت الأنظار الى الكتاب المتلو ، وتقرير أنه الفاصل بين الحق والباطل — سورة الفرقان بكلمة التمجيد والتعظيم « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا » . وانزل — فى لفت الأنظار الى الكتاب الكونى مظهر الربوبية المادية — سورة الملك بتلك الكلمة نفسها « تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير » . ثم ساقت السورة جملة من مظاهر سلطانه وقدرته وتفرده بالملك والتدبير فى الانسان ، وفيما يحيط به من عالم علوى وسفلى ، فذكرت ان الموت والحياة يتواردان على الانسان ليظهر بهما اتجاهه ويعرف سلوكه ، وهل هو من الشاكرين لنعمة الحياة ، المقدرين لرهبة الموت ، أو هو من الكافرين بنعمة الحياة ، اللاهين عن عاقبة الموت « ليبلوكم أيكم احسن عملا » وذكرت فى العالم العلوى ، انه خلق سبع سموات هى مدارات النجوم السيارة التى كانت معروفة للعالم اذ ذاك ، يعلو بعضها بعضا ، هى غاية فى الاحكام والاتقان ، لا يرى فيها شيء من الخلل مهما تكرر النظر اليها ، وتردد البحث فيها ، كيف وهى خاضعة لناموس الهى ثابت ، لا تشذ ذرة فيها عن سلطانه الا اذا شاء واضعه وممسكه ..

نظام محكم

ثم ارشدت الى ما فى هذا النظام من وجوه المصالح التى تعود على العباد بالنفع العام ، فهى زينة بمصابيحها ، تتمتع النفس بجمالها . وهى منار يهتدى به الانسان فى ظلمات البر والبحر ، وهى قذائف حق يرمى بها الشياطين ، الذين يعملون جهدهم على اخراج الناس من نور الايمان الى ظلمة الكفر « الذى خلق سبع سموات طباقا ، ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت » . « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين ، واعتدنا لهم عذاب السعير » .

ثم تصف السورة هذه النار التى أعدت للمفسدين بجملة اوصاف ، تدل على شدتها ، وتغيظها منهم وحقدها عليهم ، كما تدل على تأنيب خزنتها لهم ، وتهكمهم بهم ، وعلى اعترافهم انفسهم بذنوبهم ، واهمال عقولهم ، وزيادة فى فجيعتهم ترشد السورة بازاء ذلك الى فضل الله على المؤمنين ، واكرامه اياهم ،

واقرأ فى ذلك : « اذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهى تفور .. » الى آخر الآيات . فتذكر من مظاهر سلطانه ونعمته فى العالم السفلى تهيئة الأرض للسير والزراعة ، والتقلب فى جميع أرجائها، تنذرهم بالقدرة على تغيير تلك المعالم الأرضية بالخسف والزلازل ، وبارسال الرياح التى تقذفهم بالأحجار ، فتكدر عليهم صفو الحياة ..

❋ ❋ ❋

ثم تلفت نظرهم الى آية فذة فيما يرون من الطير ، وهو يحلق فى الجو باسطا اجنحته ، ثم يقبضها وليس لها من حافظ سوى قدرة الله المنبعثة عن رحمته . « مايمسكهن الا الرحمن » . ثم ينكر عليهم ، أن تخطر فى نفوسهم بعد تلك الدلائل الواضحة ، ان لهم من دون الله من ينقذهم أو يرزقهم : « أمن هذا الذى يرزقكم ان أمسك رزقه ؟ .. » ثم يحاكمهم الى العقل والضمير : « أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أمن يمشى سويا على صراط مستقيم ؟ .. »

نعم تستوجب الشكر

ثم بعد أن تمتن عليهم بنعمة الخلق ونعمة السمع والبصر والأفئدة ، تلك النعم التى كفروا بها وطمسوها على أنفسهم ، فلم يدركوا بها حقا ، ولم يستعملوها فى أهدافها ، تختم السورة بذكر المبدأ والمعاد ، ذلكم المعاد الذى يستبعدونه ويستهزئون به كلما ذكر لهم ، ويقولون : « متى هذا الوعد ان كنتم صادقين ؟ .. »، وتلقن النبى صلى الله عليه وسلم حجته عليهم : « قل انما العلم عند الله ، وانما انا نذير مبين » فلا تسألوا عن وقته فانه لا علم لى به ، وليس علمه من مهمتى ، وانه واقع بكم لا محالة سترونه بأعينكم : « فلما رأوه زلفة (قريبا) سيئت وجوه الذين كفروا وقيل هذا الذى كنتم به تدعون » ..

وأخيرا تقرر الا طريق للنجاة سوى الايمان بالله والتوكل عليه، فهو صاحب المنع والعطاء : « قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا، فستعلمون من هو فى ضلال مبين . قل أرأيتم ان أصبح ماؤكم (مادة حياتكم) غورا (غائرا) فمن يأتيكم بماء معين ؟ .. »

ســورة القلم

(*) كلما كان الناس غرقى فى الشهوات والاهواء ، مسلمين أنفسهم للأوهام والأباطيل كانت دعوة الحق فى نظرهم هى دعوة الباطل ، ودعوة الخير هى دعوة الشر ، ودعوة الجنون . ومن هنا كان أول ما قوبل به النبى صلى الله عليه وسلم حينما دعا قومه الى توحيد الخالق ، ونبذ ما هم عليه من الفسوق وعبادة الأصنام : « انك لمجنون » والجنون عند أرباب الشهوات هو التزام جادة الحق والخضوع لواضح البرهان . والعقل عندهم هو مسايرتهم فيما نشئوا عليه وورثوه من الأهواء والخرافات..

وقد نزلت سورة القلم فى فجر الوحى ، تكشف الغطاء عن أعينهم . وتبصرهم بحقيقة محمد وما يدعوهم اليه ، فلفتت الأنظار الى أن الذى اجتباه ربه وكرمه وحباه بنعمة الحق والذكاء والفطنة، ثم بنعمة النبوة والرسالة ، ثم بعظم الأجر على القيام بمهمته ، ثم كمله بالخلق الذى به يشهدون وله يعرفون ، محال أن يكون على ما يصفون .

ثم لم تشأ أن ترسل تلك الحجة المقنعة بنفسها ارسالا ، بل ابرزتها فى اطار من القسم بأساس دعوته وهو العلم القاضى على جهالة النفوس وطغيانها ، وذكرته بأهم أدواته من القلم والكتابة وبذلك رجعت به الى أول ما أوحى الله به اليه : « اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الانسان مالم يعلم » . ثم طمأنت الرسول بأنه سيرى بعينه ، ويرون هم أيضا بأعينهم أى الفريقين قد زل عقله وحاد عن طريق الحكمة ، ووقع فى ضلال الجنون والفتنة ، وبذلك كله تبدأ السورة : « ن . والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون » .

ثم تعود السورة وتؤكد للنبى فى آخرها ان اتهامهم اياه بالجنون لم يكن الا أثرا آثار حقدهم عليه حينما سمعوا منه تلك الدعوة

(*) سورة القلم

التى ستزلزل سلطانهم وتقضى على عزتهم التى تخيلوها ، وقد سبق هذا المعنى فى أسلوب يصور شدة حنقهم عليه : « وان يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون انه لمجنون » .. ثم تنبه الى حقيقة القرآن وما يدعو اليه بما يدل على ان حقيته غاية فى الوضوح والظهور ، وانه راسخ فى النفوس والفطر ، وما الدعوة الا تذكير وايقاظ: « وما هو الا ذكر للعالمين » . وبذلك تكافل آخر السورة مع أولها فى رد تلك الفرية واقتلاع جذورها بالواقع الصحيح .

تحذير

وتتجه السورة فيما بين ذلك الى تحذيره صلى الله عليه وسلم من الميل اليهم واطاعتهم فيما يريدونه عليه . كانوا يساومونه بالمال والسلطان ان هو ترك دعوته ، فحذرته اطاعتهم على وجه عام ، ثم نفرته من اطاعتهم بخلال سيئة عرف بها بعض زعمائهم ، وتأباها طبيعته النقية الطاهرة: « فلا تطع المكذبين ودوا لو تدهن فيدهنون ، ولا تطع كل حلاف ، مهين ، هماز ، مشاء بنميم ، مناع للخير ، معتد ، أثيم ، عتل ، بعد ذلك زنيم » . ثم تنبه الآيات الى أن سبب كفرهم هو طغيانهم بالمال والبنين ، واعتمادهم عليها ، واغترارهم بها فى عزتهم ، ثم تؤكد سوء عاقبتهم . وان الله سيشهر بهم ، ويفضح أمرهم ، ويلصق بهم علامة الذل والصغار بعلو سلطان الحق ، وادالة سلطانهم : « سنسمه على الخرطوم » .

ابتلاء بالمال والبنين

وتبين لهم ان الأموال والبنين لم تكن الا اختبارا يتبين منه صلاح النفوس وفسادها ، وفى سبيل ذلك تذكر لهم قصة أصحاب البستان « الجنة » الذين ضنوا بحق الفقراء فيها ، قالوا نحن به احق واولى ، واتفقوا على جنيها فى وقت مبكر غير الوقت الذى كان يعرفه الفقراء : « ولا يستثنون » .

وبعد أن بيتوا النية على ذلك . وذهبوا الى جنتهم ، وجدوها قد احترقت وسقطت ثمارها ، فوقعوا فى حيرة حتى ظنوا انهم ضلوا طريقها ثم تبين لهم الأمر ، وانها هى ولكن قد طاف عليها طائف من

ربك وهم نائمون ، فوقعوا فى اللوم وأدركوا انهم بنيتهم كانوا ظالمين : « فاقبل بعضهم على بعض يتلاومون ، قالوا يا ويلنا انا كنا طاغين » . فعادوا الى ربهم ورجوا أن يغفر لهم ، وأن يبدلهم خيرا من جنتهم : « انا الى ربنا راغبون » . ثم تذيل القصة بأن سنة الله فى هؤلاء المستكبرين ، وفى كل ارباب النعم هى سنته فى أصحاب الجنة : ان تداركوا خطاهم غفر الله لهم ، وان استمروا على طغيانهم فهذا جزاؤهم فى الدنيا : « ولعذاب الآخرة اكبر لو كانوا يعلمون » .

زعم باطل

ومن عادة المفتونين بأموالهم زعمهم أن لأنفسهم مكانة عند الله اعظم من مكانة الفقراء الذين يهرعون الى استجابة الدعوة فتأخذ السورة فى تبكيتهم على هذا الزعم ، وتبين لهم انه زعم ليس لهم فيه مستند : فلا الكتب نصت عليه ، ولا العقل يقضى به ولم يأخذوا به عند الله صكا ولا عهدا ، واذن فليس لهم من دونه أنصار يحفظونهم من أمره ، يوم يشتد الكرب ، ويكشف عن ساق «ويدعون الى السجود فلا يستطيعون ، خاشعة ابصارهم ، ترهقهم ذلة ، وقد كانوا يدعون الى السجود وهم سالمون » . ثم تخفف السورة وطأة تكذيبهم على النبى ، تطلب منه ان يفوض أمرهم اليه سبحانه وترشده الى ان الانعام عليهم لم يكن لمكانتهم عنده ، وانما كان املاء واستدراجا ، ثم تأمره بالصبر على كيدهم وتحذره الانفعال النفسى مخافة أن يقع فيما وقع فيه أخوه يونس ، حينما غضب من قومه وتركهم فابتلاه الله بابتلاع الحوت اياه وفى ذلك تقول السورة :

« افنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون » .

« فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث ، سنستدرجهم من حيث لايعلمون»

« فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت اذ نادى وهو مكظوم » .

عظة

اما بعد :

فجدير بأرباب الشهوات والاهواء ، الحاقدين على الحق وأهله ،

أن يطهروا قلوبهم من بواعث الحقد ومكايدة الحق ، احتفاظـــا بانسانيتهم وحرصا على مزاياهم التى كرمهم الله بها .

وجدير بأرباب الأموال الذين يضنون بحق الفقراء فيها وقدانعم الله بها عليهم — ان يتأملوا قصة أصحاب الجنة فيخشوا غيره الله على عباده الفقراء ..

وجدير بأرباب الدعوة الى الحق ، الذين يعملون على الخـــير والصلاح ، ألا يقتربوا من المبطلين أرباب الفساد والخلق السيء الذى يمنعون به الخير ويفسدون به ما بين النـــاس من روابط المحبة والأخاء ، عليهم أن ينشـــئوا ابناءهم على خـــلال الخـــير والفضيلة . وجدير بهم أن يتذرعوا فى كل ذلك بالصبر والالتجـــاء الى الله حتى يسعدوا أنفسهم ومجتمعهم بدعوة الخير والفضيلة ، ويركزوا الحق الذى رضيه الله لعبـــاده وبينه فى كتبه ، وكلف رسله بتبليغه والدعوة اليه . ونسأل الله التوفيق والهداية ..

ســـورة الحَاقـــة

(*) وجهت سورة الملك أنظار القوم الى بعض ما فى الكون من دلائل الوحدانية وآيات الحكمة والعلم والقدرة ، وكشفت سورة القلم عن نعمة الله على محمد ، وعن بطلان التهمة التى وجهها اليه القوم حقدا وغيظا ، وهى تهمة الجنون ، وحـــذرته أن يلين لهم ، أو أن يسارع اليه الغضب فيكون كأخيـــه يونس بن متى ، وضربت لهم الأمثال فى عاقبة الاغترار بالأموال والبنين ، ولم يفتها أن تعرض للتهديدات بالبعث ، ودار الجزاء .

ثم تجىء سورة الحاقة فتضع الحد الفاصل بين زعمهم وبين دعوة الرسول فيما يختص بالقيامة ، فتبدأ بتفخيمها وتعظيم شـــأنها ، وأنها بلغت فى عظم الشأن أن يقف الانسان أمام انبائها واهوالها مبهوتا متسائلا ، بل بلغت مبلغا يتسامى عن الادراك والاحاطـــة « الحاقة » ما هى ؟ وما أدراك ما هى ؟ استفهام يملأ النفس روعة ورعبا ، ويقف بها على شاطىء بحر متلاطم الأمـــواج ، لا يدرك البصر أطرافه ، فيقف حائرا مضطربا لا يملك سوى أن يقول ما هذا؟ ما هذا ؟

معنى الحاقة

وكلمة « الحاقة » ككلمـــات القارعة والواقعـــة ، والطامة ، والصاخبة ، أعلام بالغلبة على القيامة ، ولكل منها دلالة على معنى من معانيها ، وأثر من آثارها . فهى حاقة فى ذاتها ، وهى حاقة لانبائها ، وهى بمقوماتها وأحداثها تقرع القلوب وتصك الأسماع ، وهى التى بعد هذا كله كان انكار الأمم السابقة لها سببا فى فسادهم وطغيانهم ، وفى التنكيل بهم على وجه لا تزال آثاره وأخباره تنبىء بما أصابهم من الهلاك والدمار ، فهذه ثمود ، وتلك عاد ، وهذا فرعون ومن قبله من الطغاة ، وهذه « المؤتفكات » القرى التى

(*) سورة الحاقة .

أؤتفكت وانقلبت على أهلها بفعلتهم الشنعاء : قرى قوم لوط . هؤلاء جميعا أنكروها ولم يعملوا على حسابها،فاندفعوا فى طغيانهم واثمهم ، فأتى على الكل ما طوى صفحتهم من الوجود ، وجعلهم أثرا من بعد عين « فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ، وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية » .

وقد ذكرت السورة بالطوفان الذى أخذ قوم نوح ، مصرحة بجانب النعمة فيه على العرب وهى حمل أصولهم فى السفينة « انا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية » . ومعنى هذا انه كان جديرا بالعرب — وهم أبناء الذين سلموا من الطوفان — أن يذكروا تلك النعمة ، ويدعوا العناد والتكذيب : « لنجعلها لكم تذكرة وتعيها اذن واعية » .

انـــذار

وبعد أن فخمت السورة من شأن الساعة ما فخمت ، وقدمت للقوم النذر التاريخية التى أصابت المكذبين بها، أخذت تصور أحداثها، من مقدماتها الى نهايتها ، فصورت بالنفخ فى الصور انحلال النواميس التى تمسك العالم علويه وسفليه « وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة ، وانشقت السماء فهى يومئذ واهية » . ثم تصور عظمة السلطان الالهى بمثل ما يعهده الناس فى سلطان القادرين الأقوياء : « والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » وحسبنا أن نؤمن بما تدل عليه العبارة من عظم السلطان على حسب ما يعهده الناس فى دنياهم . أما كيف تقف الملائكة على الأرجاء ، أو كيف يحمل العرش ، أو من هؤلاء الثمانية ؟ أو ما حكمة هذا العدد ؟ فهذا كله مما لا ينبغى أن نخوض فى حقيقته ، انما هو روعة القضاء الالهى ، والحكمة القاهرة ..

جزاء المؤمن

ثم تشير الآيات الى العرض على دار القضاء التى تحدد فيها المسئوليات : « يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية » . ثم تشير الى الحكم ، فيصدر لفريق بالنجاة ، وعلى آخر بالادانة ، وان

الأولين يسلمون صك البراءة بأسلوب التكريم : « فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول : هاؤم اقرأوا كتابيه ، انى ظننت انى ملاق حسابيه » . وأن الآخرين يسلمون صك الادانة — على العكس — بالاهانة ، معترفين بعملهم الكاذب وغرورهم الفاسد : « وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول : يا ليتنى لم أوت كتابيه ، ولم أدر ما حسابيه ، ياليتها كانت القاضية ما أغنى عنى ماليه ، هلك عنى سلطانيه » . وبعد ان يصدر الحكم يجىء دور التنفيذ فيكون المؤمنون « فى عيشة راضية ، فى جنة عالية ، قطوفها دانية ، كلوا واشربوا هنيئا بما اسلفتم فى الأيام الخالية »

جزاء المكذب

اما المكذب المجرم فيقال للزبانية : « خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه » . ثم تبرز الآيات حيثية الحكم على هذا المجرم : « انه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين » . وحسب المسكين ان يكون اهمال أمره وعدم الحض على اطعامه عديلا فى كتاب الله وقضائه للكفر بالله .

وبعد أن يتم تصوير مراحل القضاء الالهى فى الفصل بين المؤمنين والمكذبين تنتقل السورة الى ما يقرر الحق فى النفوس ، وتبرز قسم الله — الذى ليس فى حاجة الى القسم — بالعالم غائبه وشاهده ، على ان القرآن قول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر ، ولا بقول كاهن . وانما هو تنزيل من رب العالمين .

ثم تعبر السورة عن موقف الالوهية بالنسبة لمحمد على فرض انه كما يزعمون قد افترى القرآن على ربه : « ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين » . والمعنى لقضينا عليه من ساعته ، وقطعنا منه عرق الحياة ثم لا يوجد من يدفع عنه ، أو يمنعنا من تنفيذ ارادتنا فيه ، وموقفنا منه — وقد افترى علينا — هو موقفنا منكم وقد كذبتموه فى رسالته .

أثر القرآن فى النفوس

ثم تختم السـورة ببيان أثر القرآن فى النفـوس ، وانه تذكرة للقلوب الصافية المستعدة للخير ، وحسرة على الأخرى التى افسدت استعدادها بالشهوات والأهواء : « وانه لتذكرة للمتقين ». «وانه لحسرة على الكافرين » . ثم تؤكد أن القرآن هو الحق الثابت الذى لا شبهة فيه ، وتأمر الرسول بالتزامه واهمال المكذبين ، معتصما فى ذلك بتنزيه الله الذى أحاطه بعنايته ، والذى لا يرجى ولا يخاف سواه : « وانه لحق اليقين . فسبح باسم ربك العظيم».

ســـورة المعـــارج

(*) كان من أساليب الدعوة الى التوحيد والبعث الانذار المتكرر للمكذبين بعذاب يوم القيامة ، وكثيرا ما طوقهم القرآن — على نحو ما رأينا فى السورة السابقة « الحاقة ما الحاقة » — بأنباء العذاب الأخروى والمحاكمة أمام القضاء الالهى .

عذاب ليس له دافع

وكان القوم يقابلون هذا الانذار بالانكار والاستهزاء والسخرية، ولقد وصل بهم الأمر فى ذلك الى حد أن استعجلوا العذاب ، والى حد أن قال قائلهم « اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب اليم » .

وقد جاءت سورة المعارج ، بعد ان حققت سورة الحاقة أنباء البعث والقيامة ، تكشف عن ضعف عقلية القوم ، اذ كانوا يطلبون وقوع العذاب الذى به يوعدون ، بدل أن يطلبوا التوفيق الى الايمان فيكون ايمانهم وقاية لهم من ذلك العذاب ، وتؤكد لهم أن العذاب واقع بهم ليس من شك ، وليس لهم من ينجيهم منه ، وليس له من دافع يدفعه عنهم ، فمشيئة الله نافذة فيهم ، وعذابه لاحق بهم ، وترشدهم الى أن طول الأمد ، الذى لم يظهر فيه شىء منه ، انما هو طول نسبى فى أنظارهم فقط . أما فى واقعه ، وفى تدبير الله فهو يوم واحد ، هو يوم الدنيا ، ومرحلة واحـدة ، هى مرحلة التدبير لشئون الدنيا ، ذلكم التدبير الذى اقتضت حكمة الله ان يكون بواسطة جند يترددون بينه وبين خلقه على معارج ومصاعد فى يوم كان مقداره فى ايامكم خمسين الف سنة . ومـا هى الا أن تمضى مرحلة التدبير ، ومرحلة التكليف ، وتأتى مرحلة الحســاب وتحديد المسئوليات ، واذن فلا تكترث يا محمد بموقفهم منك واصبر صبرا جميلا ..

(*) سورة المعارج .

المعـــــروج

وقد عبرت الآية عن مرحلة التدبير بعروج الملائكة والروح الى الله فى يوم كان مقداره خمسين الف سنة ، وما علينا الا أن نؤمن بما تدل عليه الآية من قصر أمد الدنيا فى نظام الله ، وليس علينا أن نكلف أنفسنا عناء البحث عن حقيقة شيء استأثر الله بعلمه .

ويلتقى هذا التصوير مع مثله فى آية أخرى « ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون » .

وفى آية ثالثة « يدبر الأمر من السماء الى الارض ثم يعرج اليه فى يوم كان مقداره الف سنة مما تعدون » .

فهم واجتهاد

والقصد من كل ذلك ان وقع العذاب الذى يسألونه يعقب ذلك اليوم الذى يتردد فيه الملائكة بين الخالق والخلائق ، وهو البقية من يوم النشأة الأولى . وقد جاء على لسان الرســـول « بعثت أنا والساعة كهاتين ، واشار الى السبابة والوسطى » واختلاف العدد يدل على مجرد الكثرة والمبالغة فى وصف الدنيا بالطول بالنســـبة اليهم لا بالنسبة لنظام الله وايامه ، وقد افصحت السورة عن هذا المعنى « انهم يرونه بعيدا ونراه قريبا » .

من علامات القيامة

ثم أخذت السورة تذكر علامات القيامة فى السماء وانها ستكون كالمهل « مائع الزيت » ، وفى الجبال وانها ستكون كالعهن المنفوش « الصوف المنفوش » : وفى الانسان وانه سيتلهى فيه كل امرىء بنفسه : « ولا يسأل حميم حميما » . ثم تترقى فى وصف هـــول ذلك اليهم بأن المجرم يتمنى فيه لو يفتدى من عذابه بأقرب الناس اليه واحبهم عنده ، ثم تقطع عليه أمل الفداء ، وتصور لحوق العذاب به بطمع النار فيه : « انها لظى ، نزاعة للشوى ، تدعو من أدبر وتولى وجمع فأوعى » .

ثم تشير الآيات الى الانســـــان فى انكار الحق ومحبتـــه الجمع والادخار اذا لم يعتصم بهداية الله ، وان منشأ ذلك فيه غلبةالهوى عليه « ان الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا . واذا مسه الخير منوعا » .

ثم تذكر ان علاج ذلك الشأن انما هو القيام بحق الله وحق الفقير السائل والمحروم ، وفى التصديق بيوم الدين ، وفى الخوف من عذاب الله ، وفى حفظ الأعراض والأمانات ، وفى الشــــهادات والمحافظة على الصلوات ، وانه بتلك الخلال الفاضلة تتحقق عناصر الشخصية الناجية التى يكون أهلها : «فى جنات مكرمون» ولو ان هؤلاء سلكوا هذا السبيل لكان مصيرهم الى النعيم ، ولكنهم رفضوا أن يطهروا قلوبهم واخذوا يســـــخرون بالحق ، ويفترون على الله ، يزعمـــون لأنفسهم استحقاق الجنة ، بل أحقيتهم بها : « أيطمع كل امرىء منهم أن يدخل جنة نعيم كلا » ..

ثم تختم السورة بتوعدهم ، وتوجيه النبى الى عدم الاكتراث بهم : « فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون ». وعندئذ يكشف لهم عن ساق ، وانهم كانوا على باطل ، ثم تصف خروجهم من القبور فى ذلك اليوم ، مسرعين ملبين دعوة البعث ، مقهورين غير مختارين ، وتذكرهم فى حالتهم هذه بحالتهم فى دنياهم حينما كانوا يخرجون من بيوتهم متسابقين الى اصنامهم التى كانوا يعبدونها من دون الله : « يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم الى نصب يوفضون ، خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ، ذلك اليوم الذى كانوا يوعدون » .

ســـورة نـــوح

(*) قوبل النبى صلى الله عليه وسلم منذ ان دعا الى توحيد الله وعقيدة البعث بموجة شـديدة من الانكار المصبوغ بألوان الاستهزاء والسخرية ، وقد اقتضت الحكمة الالهية ان يكون من اساليب الدعوة التذكير بما اصاب الأمم الخاليـة جـزاء الانكار والتكذيب .

وفى هذه السورة يقص الله على نبيه موقف اول رسول بعثـه للبشر فدعاهم الى مثل دعوته ، وقوبل منهم بمثل ما قوبل به ، تثبيتا له على دعوته ، وتسلية له فيما يصيبه ، وتهديدا لقـومه — ان استمروا على العناد والاستهزاء — بعاقبة اسلافهم حينمـا استمروا على الكفر والعناد .

وللعرب رابطة خاصة بنوح عليه السلام ، وهى رابطة البنوة ، ففى التذكير بقصته تهديد لهم بجانب ما كان فيها من النقمة التى أخذت المكذبين ، وامتنان عليهم بما كان فيها من النعمة التى انقذ بها نوح ، ومن آمن معه ، ومنه كان آباؤهم الذين بواسطتهم ظهروا فى الوجود وتكونوا شعوبا وقبائل وانتشروا فى الأرض ، والى هذا تشير آية الحاقة : « لمـا طغى الماء حملناكم فى الجارية » .

وقد تكررت فى القرآن بأساليب مختلفة بين الطول والقصر تسلية الرسول وتذكير القوم بقصة نوح عليه السلام . وعنيت هذه السورة المسماة باسمه بأمور :

دعوة نوح وأصولهـا

أولها : بيان دعوة نوح ، وانها ترتكز على اصول ثلاثة : عبادة الله وحده ونبذ عبادة الأصنام .

(*) سورة نوح .

تقوى الله باجتناب المعاصي التى تفسد الأخلاق وتفكك الروابط بين الجماعات .

اطاعة الداعى فيما يأمر به عن ربه .

وهذه الأسس الثلاثة هى دعوة كل رسول جاء بعده ، وهى مصاعد الحياة الطيبة تعلو الأمم اذا تمسكت بها ، وتسقط اذا انحرفت عنها : « انا أرسلنا نوحا الى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب اليم ، قال يا قوم انى لكم نذير مبين ان اعبدوا الله واتقوه وأطيعون » .

فوائد الدعـــوة

ثانيا : بيان فؤائد هذه الدعوة التى تعود عليهم بخيرى الدنيـــا والآخرة اذا قبلوها وآمنوا بها.والآيات ترشد الى انهم ينتفعون بها فى نواح ثلاث :

ناحية الروح ، تمحو عنها ما اقترفته من الذنوب « يغفر لكم من ذنوبكم » .

ناحية الأجل ، فيها يستوفون أجلهم الطبيعى دون أن يعاجلهم العذاب المقدر عليهم اذا استمروا فى الكفر والمعاصى « ويؤخركم الى أجل مسمى » .

ناحية الرزق ، بفتح أبوابه وتوجيههم نحو العمل فى الحيـــاة ، والانتفاع بما سخر لهم فيها : « يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا » .

ســـبل الدعـــوة

ثالثها : أن نوحا سلك معهم فى الدعوة السبل الطبيعية لكل دعوة جديدة أسر وأعلن ، وجمع بين الاسرار والاعلان ، ومع كل هذا : « جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا » .

دعاهم ببيان ما فى الدعوة من الخير الروحى والمادى ، ثم دعاهم بلفت الأنظار الى آيات الله ونعمه فى أنفسهم وفى الخلق كله :

« ما لكم لا ترجون لله وقارا ، وقد خلقكم أطوارا . ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا . والله أنبتكم من الأرض نباتا ، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم اخراجا . والله جعل لكم الأرض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا » .

لفت أنظارهم بعد أن هز عواطفهم الى برهان العقل فنبه الى خلق أنفسهم والاطوار التى مرت بهم ، ونبه الى خلق ما يحيط بهم من عالم علوى وسفلى على وجه يكفل لهم خير الدنيا وطيب الحياة .

ومن دقائق الاشارات العلمية فى نظام الكون أن الآيات لم تجعل الشمس فى السموات وهذا يتفق تماما مع ما عرف أخيرا من أن الشمس مركز النظام الشمسى ، وأن الكواكب تحف بها ، وأن القمر له مركز فيها ومعدود منها : « وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا » .

عناد واعراض

رابعها : انه على الرغم من هذه الطرق المختلفة ، وتلك البراهين الواضحة ، نبذ قوم نوح دعوته ، واشتد انكارهم لها ، وقد صور نوح اعراضهم ، مرة بوصف فى أنفسهم ، سدوا آذانهم وتغطوا بثيابهم ، ومرة بالشكوى الى الله الذى أرسله بهذه الدعوة ، وأشار الى سبب اعراضهم : وهو اتباع الرؤساء المفتونين بالأموال والأولاد : « قال نوح رب انهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده الا خسارا » .

ثم كشف عن دعوة الباطل التى خدعهم بها هؤلاء الماكرون : « وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا » .

وهنا ابرز أسماء الآلهة التى عبدوها من دون الله ، هى أسماء لتماثيل كواكب اعتقدوا انها منبع الخير ، أو أسماء لقوم صالحين أطلقوها على تماثيلهم التى اتخذوها معبودات وآلهة من دون الله ، ولعل هذه الفترة كانت مبدأ زلة العقل البشرى فى اتخاذ التماثيل

وعبادتها ، ومنه انحدر تقديس البشر من الأنبياء والأولياء بما يقدس به خالق البشر . ومن هنا حظر الاسلام صنع التماثيل واقامتها بفكرة التقديس والعبادة ، وبذلك اجتث جذور الوثنية ، ونعى على المستغيثين والمستعينين بغير الله .

عاقبة المكذبين

خامسها : بيان العاقبة التى صار اليها القوم جزاء اعراضهم عن سماع الحق « مما خطيئاتهم اغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله انصارا » . وقد عرضت سورة هود الى حادثة الطوفان التى أغرقت القوم : « واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين » . ثم اشارت الآيات الى حكمة الله فى اخذ الجبارين المستكبرين وهى ترجع الى ارادة تطهير العالم من جرائم الشر والفساد : « انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا » .

وازاء هذه العاقبة السيئة التى تقطع على الجبارين حياتهم تشير الآيات الى العاقبة الطيبة لعباده المؤمنين « رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين الا تبارا » .

اما بعد :

فتلك قصة نوح كما وردت فى سورة نوح ، قصها الله على كفار مكة ، وعلى جميع الناس ، وهى مثال حى ناطق بسنة الصراع بين الحق والباطل فى كل زمان ومكان ، وناطق بأن فساد العقلية البشرية ليس من اصل الطبيعة وانما هو من خداع المستكبرين الماكرين ، وناطق بأن الحق مهما طال ركوده لابد أن يعلو صوته وينتشر فى العالم ضوؤه ، ويعم الكون خيره ..

وهكذا ستكون عاقبتك يا محمد وعاقبة كل من اهتدى بهديك ، وسار على سنتك فى الدعوة الى الحق والى الصراط المستقيم .

ســـورة الجـــن

(*) فطر الناس على ان فى العالم خلقا آخر غير الانســـان ، يعرفونه بآثاره ولا يرون أشباحه ، ولا يعرفون حقيقته ، وقـــد صرحت بذلك جميع الكتب السماوية بعبارات واضـــحة لا تحتمل التأويل ، كما صرحت بالعناوين الخاصة بهذا الخلق ، فذكرت الملائكة ، وذكرت أعمالهم ومهامهم ، ووصفتهم بالطاعة الدائمة ، وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ..

الجـــن والانس

وذكرى الجن وجعلتهم نوعا مقابلا للانسان يندرجان تحت عنوان « الثقلين » ، وخاطبتهم وتحدثت عنهم ، كما خاطبت الانســـان وتحدثت عنه : « يا معشر الجن والانس ان استطعتم أن تنفـــذوا من اقطار السموات والأرض فانفذوا . لا تنفذون الا بسلطان فبأى آلاء ربكما تكذبان . يرسل عليكما شواظ من نار ونحـــاس فلا تنتصران » . « ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والانس فى النار كلما دخلت امة لعنت أختها » . « ويوم يحشرهم جميعـــا يامعشر الجن قد استكثرتم من الانس وقال أولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا . قال النار مثواكم خالدين فيها الا ما شاء الله » .

تكليف ومسئولية

وهكذا نجد القرآن قد اشرك الانس مع الجن فى المســـئولية والمؤاخذة والمصير ، ووضعهما فى اطار واحد ، وتحدث عنهمـــا بحديث واحد ، وسرع فى وجوههم جميعا حجة واحدة : « يا معشر

(*) سورة الجن ١٠

الجن والانس الم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ ؟ . قالوا : شهدنا على أنفسنا ، وغرتهم الحياة الدنيا ، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين » .

حقائق ثابتة

واذن فليس فى وجود الجن شك ، وليس فى تحميلهم شرائع الله ورسالاته شك ، وليس فى مسئولياتهم ومؤاخذتهم بالتقصير شك ، وليس فى استعدادهم لاستماع القرآن وتلقيه وفهمه وتدبره والتأثر به شك ، فكل هذا حق لا ريب فيه . ومن لم يؤمن به فليس بمؤمن بالقرآن ولا برسالة السماء وان محاولة تأويل شيء منه تحريف للكلم عن مواضعه ، وسلخ للالفاظ عن معانيها ، وضيق عطن من المولعين بانكار ما لا يدركه الحس ..

استجابة الجن للاسلام

هذا وقد قص الله علينا فى موضعين من كتابه استماع نفر من الجن للقرآن ، وان هذا الاستماع كان له اثره البالغ فى نفوسهم ، صحح عقائدهم فى الله ، وطهر نفوسهم من الأوهام والخرافات المتعلقة بهم ، وكملهم بالمعارف الصحيحة ، واندفعوا به الى انذار قومهم فأرشدوهم الى الحق فى العقيدة ، والى الحق فى الرسالة ، والى الحق فى علاقتهم بالانس ، والى الحق فى معرفتهم الغيب ، اجمل كل ذلك فى قوله تعالى من سورة الاحقاف : « واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا انصتوا فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين قالوا يا قومنا انا سمعنا كتابا انزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى الى الحق والى طريق مستقيم . يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم ، ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الارض وليس له من دونه أولياء أولئك فى ضلال مبين » .

وهذه سورة الجن تفصل ما أجملته سورة الاحقاف من مبادىء الخير والفضيلة التى ادركوها من القرآن ، وتصحح على لسانهم الاخطاء التى كانوا عليها وادركوا الحق فيها مما سمعوا من القرآن .

الجن يتحدثون

ولنصغ اليهم وهم يلقنون عقيدة التوحيد وتنزيه الرب عن اتخاذ الصاحبة والولد : « ولن نشرك بربنا احدا وانه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا » .

ولنصغ اليهم وهم يضيفون فساد عقائدهم الى سفهائهم الذين يكذبون على الله ..

ولنصغ اليهم وهم يتحدثون الى قومهم عمن يعتقدون من الانس ان للجن سلطانا عليهم فيعوذون برجال منهم وضعوا فى نفوسهم ان لهم سلطة استخدام الجن ، وسلطة منعهم من أذاهم، وقد درج الناس على هذا الوهم ، واستغل به كهنتهم ضعاف العقول منهم باسم العلاج و « التدويطة » وساعدهم على ذلك طائفة من المتسمين بسمة العلم والدين وايدوهم بحكايات وروايات موضوعة — وقد يشاركونهم فى الاستغلال والدجل — حتى افسدوا على الناس عقائدهم وصرفوهم عن العلم النافع والعمل المفيد . فجاء القرآن يقرر فساد ذلك كله على لسان الجن أنفسهم : « وانه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا ».

ولنصغ اليهم وهم يتحدثون الى قومهم فى العقيدة الفاسدة . عقيدة أن الجن يعلمون الغيب ، وان اناسا يستخدمونهم فى ذلك فيعلمون منهم ما تسوقه المقادير الالهية من شر فيتقى أو خير فيرتقب . ثم يعلنون أن الغيب لله وحده ، وان القرآن قصر علم الغيب على الله فلا يعلمه أحد سواه : « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو » . « قل لا اقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب » . « وانا لا ندرى اشر اريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا » .

ولنصغ اليهم وهم يتحدثون عن قدرة الله ، وعن العاقبة الطيبة لمن يؤمن بالله ، وعما كان بينهم من الاختلاف فى العقيدة ، وعن مصير الجاحدين الظالمين : « وانا منا المسلمون ومنا القاسطون ، فمن اسلم فأولئك تحروا رشدا ، وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا».

توجيهـــــات

ثم تختم السورة ــ بعد حديث الجن الى قومهم بما سمعوا من الحق ــ بجملة توجيهات للنبى صلى الله عليه وسلم فتأمره أن يتمسك بدعوته ، وأن يعلن عجزه وعدم قدرته على الخير أو الشر ، وان السلطان عليه وعلى الناس لله وحده ، وانه لن يجد من دونه ملجأ يلتجىء اليه ؛ وانه مبلغ لرسالة ربه فقط ، وانه لا يدرى متى ينزل العذاب الذى توعدهم الله به ان لم يؤمنوا وانه من الغيب الذى لا يعلمه الا الله لا يطلع على غيبه أحدا من خلقه الا من ارتضى من رسول فانه يطلعه على ما أراد ثم يحفظه بجنده الالهى حتى يبلغ رسالته : « فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ليعلم أن قد ابلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شىء عـــددا » .

هذه قصة الجن فى استماع القرآن والتأثر به وهداية قومهم اليه ، فهل تقف الشهوات والأهواء بالانس دون أن ينتفعوا بالقرآن ــ كما انتفع به الجن ــ وهم من جلدة الرسول ، تجمعه وآياهم بيئة واحدة ، ورحم واحدة ، ونشأ واحدة ، وفى الحق أن فى قصة الجن وتأثرهم بالقرآن على هذا النحو هزة عنيفة لانسانية الجاحدين المستكبرين من الانس ، وفيها فوق ذلك من العبر ما يلقم الدجالين فى كل عصر ومكان حجر الحق الذى يفتت أمعاءهم ويذهب بكيدهم ويفسد عليهم أمرهم فى التسلط على عقول الضعفاء من الناس فاعتبروا يا أولى الأبصار .

سورتا المزمل والمدثر

(*) ركزت سورة الملك عقيدة التوحيد ، وسورة القلم عقيدة الرسالة المحمدية ، وسورتا الحاقة والمعارج عقيدة البعث ودار الجزاء ، ثم أقامت سورة نوح الحجة التاريخية الواقعية على صحة الدعوة ، كما أقامت سورة الجن الحجة البالغة على ما أحدثه القرآن من عظيم الأثر فى نفوس لجن ، وانهم فهموه وانتفعوا به وأرشدوا قومهم اليه ، وبذلك كله تركزت الدعوة فى ذاتها ، وفى آثارها ، ولكن كل ذلك لا يكفى فى تقبل الناس لها وانتفاعهم بها ، بل لابد لها مع هذا من لسان بين ، يحمله قلب قوى ، يدعو اليها ويعمل على نشرها والاقناع بها . وان الحق لابد له من قوة تحمله وتحميه ، وهو لا يقوم فى ظل الراحة والسكون ، ولا فى ظل العزلة والانكماش ، وانما يقوم :

أولا : باعداد النفس بتمرينها على تحمل المشاق وتكميلها بالفضائل التى ترسل عليها أشعة الأنوار الالهية فتضىء لها السبل ، وتمدها بقوة تقتلع منها بواعث الحيرة والاضطراب ، وتزيح من أمامها العقبات ..

وثانيا : برسم المنهاج الواضح للدعوة الذى يأخذ بالنفوس من طريق الشر الى طريقها الممهد ، وقد جاءت السورتان : « المزمل والمدثر » ترشدان الى ما يجب من هذين الأمرين لينجح الداعى فى دعوته ويقوم بمهمته ، والكلمتان معناهما : « المتلفف بالثياب » وقد يكون ذلك اشارة الى حالة حقيقية لجأ اليها النبى فى بعض ظروفه . المتصلة بمفاجأة الوحى له ، أو بموقف القوم منه ، وقد يكون رمزا لحالة الدعة والسكون والتفكير العميق فى وسائل الدعوة التى كلفها وعلى كل فالنداء بهذا الوصف ينهض ، الهمة ، ويوقظ النفس ، ويحرك بواعث العمل ويضاعف التهيؤ لما يلقى من تعليم ..

يا أيها المزمل

وقد تضمن النداء الأول : « يا أيها المزمل » نهيه صلى الله عليه

(*) سورتا المزمل والمدثر .

وسلم عن الدعة والسكون ، كما يكون من شأن المتهيب لعمل لم يعهده ، ولا يعرف قدرته عليه ، وتضمن ارشاده الى تقوية قلبه عن طريق قيام الليل ومناجاة ربه واستشعار عظمته ، فيستمد بها الحول والقوة ، والى تلاوة القرآن وتدبر الوحى الذى يلقى عليه تدبرا يملأ روحه ايمانا وقوة ، والى مشقة المهمة وصعوبة الدعوة لكى يبذل لها ما تستحق من العناية ، ولتهون على نفسه الصعاب حينما تصادفه وتتصل بدعوته ، والى توزيع الاعمال على الأوقات ، فيقوم فى كل وقت بالعمل الذى يكمل فيه وينضج ، فالليل للعبادة والقراءة والذكر ، والنهار للدعوة والتقلب بين الناس للارشاد والتعليم ، واقرأ فى ذلك كله قوله تعالى : « يا أيها المزمل ، قم الليل الا قليلا » الى قوله : « واذكر اسم ربك وتبتل اليه تبتيلا » .

يا أيها المدثر

ثم يجىء النداء الثانى : « يا أيها المدثر » فينزعه مرة أخرى من هموم نفسه وحيرته فى هداية قومه : يطرد عنه اليأس ويوجهه الى العمل ومباشرة المهمة : « قم فأنذر » ثم يجمع له أطراف المهمة فى كلمات قصيرة هى فى عظم معناها وضخامته أشبه بالقنابل الثقيلة تقذف معسكرات الشرك والطغيان ، وتبيد جرائيم الفسوق والعصيان : « وربك فكبر » لا يكن فى قلبك مثقال ذرة من خوف غيره أو عظمة سواه ، وهذا تقرير لعقيدة التوحيد ، وتحرير للعقل من سلطة الوهم : « وثيابك فطهر » وهذا تحرير للنفس من قيود الأخلاق الذميمة .. « والرجز فاهجر » وهو تحرير للجوارح من قيود المعاصى والذنوب . واذا كان الانسان عقلا ونفسا وجسدا ، وكان كل فساد أو صلاح منشئوه العقل أو النفس أو الجسد ، فتلك ارشادات ثلاثة تطهر القوى الثلاث من كل شر ، وتجعلها خالصة لكل خير .

ولما كان ما تضمنه النداءان ، من وجوه الاعداد النفسى ، ونواحى العمل فى مهمة الرسالة ، يحتاج فى تحققه الى استعانة خاصة وجهاد قوى ، جاء عقب كل منهما فى السورتين تخصيص الصبر من بين الأخلاق بالذكر والعناية ، فتقول الأولى بعد الارشاد الى وجوه الاعداد « واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا » . وتقول الثانية بعد الارشاد الى نواحى العمل : « ولربك فاصبر » .

للمكذبين عاقبة ســيئة

ثم تأخذ السورتان ، كل بأسلوبها الخاص ، فى شــد أزره صلى الله عليه وسلم بتهديد المكذبين ، وبيان ما أعد لهم عند الله من العاقبة السيئة والعــذاب الأليم فتقــول الأولى : « وذرنى والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا ، ان لدينا انكالا وجحيما وطعاما ذا غصة وعذابا أليما ، يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا » .. الى أن تقول : « فكيف تتقون ان كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا » وتقول الثانية : « فاذا نقر فى الناقور ، فذلك يومئذ يوم عسير ، على الكافرين غير يسير ، ذرنى ومن خلقت وحيدا ، وجعلت له مالا ممدودا ، وبنين شهودا ومهدت له تمهيدا ، ثم يطمع أن أزيد ، كلا ، انه كان لآياتنا عنيدا ، سأرهقه صعودا » .

وصف الجحيم

ثم تأخذ فى وصف الجحيم بما يذيب النفوس ويبدد نياط القلوب ، وتختم الأولى « المزمل » بارشاد المؤمنين ، دعاة الحق ، والمؤمنين بالحق ، الى ما يحفظ لهم عز الحياة ، وسعادة الآخرة : « وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خير وأعظم أجرا » . وتختم الثانية بتسجيل نكبة المعرضين عن الحق واعترافهم على أنفسهم بالكفر والطغيان ، والقسوة على الفقراء والمساكين : « قالوا لم نك من المصلين ، ولم نك نطعم المسكين ، وكنا نخوض مع الخائضين ، وكنا نكذب بيوم الدين ، حتى أتانا اليقين ، فما تنفعهم شــفاعة الشافعين .. » الى أن تقول : « كلا بل لا يخافون الآخرة ، كلا انه تذكرة ، فمن شاء ذكره وما يذكرون الا أن يشــاء الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة » .

أما بعد ، فهاتان سورتا الاعداد والعمل ، فمن شــاء أن يصل الى السعادة فليعد نفسه بما رسمت سورة المزمل ، وليعمل على أساس مما رسمت سورة المدثر ، وليتذرع بالصبر والاخلاص ، وليسر بنفسه وأمته فى ضوء تلك التعاليم المنبعثة عن الرب ، العليم بطيات النفوس ، الرحيم بخلقه ، والله للعاملين المخلصين نعم المولى ونعم النصــير .

ســـــورة القـيامة

(*) كانت عقيدة البعث من أبعد ماجاء به النبى صلى الله عليه وسلم فى نظر القوم وقد قوبلت منهم بشدة الانكار المصبوغ بألوان الاستهزاء والسخرية ، وكثيرا ما كانوا يلقون بكلمات يزعمون انها براهين تحيل وجودها ، وتمنع التصديق بها : « أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا ؟ » . « من يحيى العظام وهى رميم ؟ » . « ومتى هذا الوعد ان كنتم صادقين » وكان القرآن يلاحقهم فى ذلك بانذاراته المتكررة ، وتأكيداته المتعددة ، وبراهينه الحية الواضحة ، حتى لقد جاء فيه جملة سور سميت بأسمائها وأسماء مقدماتها وأهوالها ، وكانت عقيدة البعث أبرز ما عنيت بتأكيده هذه الســـور ، ففيه الواقعة ، والغاشية ، والحـــاقة ، والقارعة ، وفيه التكوير ، والانفطار ، والانشقاق ، والزلزلة ، ولا نكاد نجد بعد ذلك سورة من القرآن الا قد عرضت لتلك العقيدة فى ناحية من نواحيها .

ثمرة الايمـــان بالجزاء

والواقع ان الايمان بالجزاء أقوى ما يغرس فى النفس الايمـــان بالحق ، والايمان بالفضائل ، ويبعث فيها داعية الخير وطاردة الشر . وهذه سورة القيامة تجىء بعد سورة المدثر التى سجلت على المجرمين ما سيكون من اعترافهم يوم البعث على أنفسهم بالكفر والجحود ، فتؤكد أمر القيامة ، وأن تحققها ، فى وقتها الذى يعلمه الله ، أمر بين لا يحتاج الى قسم : « لا أقسم بيوم القيامة ، ولا أقسم بالنفس اللوامة » .

واذا كان من سنة الله فى القرآن انه لا يقسم فى موضع الحاجة الى القسم الا بما عظم خطره فى مخلوقاته ، ودلت العبارة على أن القيامة لا يحتاج فى ثبوتها الى قسم بها عليها ، ولا بالنفس اللوامة عليها ــ كان فى ذلك ارشاد الى أن القيامة وكذا النفس

(*) سورة القيامة .

اللوامة من أعظم مخلوقاته خطرا ، وأقواها أثرا ، وأظهرها وجودا، وفى هذا تقرير لتحققها ووجودها .

النفس اللوامة

وفى ضم القسم بالنفس اللوامة الى القسم بيوم القيامة ارشاد آخر الى مكانة هذه النفس التى لاتترك صاحبها عند درجة يلام عليها ، بل لا تتركه عند درجة فوقها درجات من الكمال ، فهى على الدوام تؤنبه على الدرجات الدنيا ، وتدفعه الى الدرجات العلا ، حتى يعتلى أشرف المنازل فى هذا اليوم الخطير ..

ابطال دواعى الانكار

وبعد هذا الاستدلال المملوء بألوان من التأكيدات ليوم القيامة ، تأخذ السورة فى ابراز ما احتوت عليه نفس الانسان الجاحد من الظنون والأوهام التى زينت له الانكار والجحود « أيحسب الانسان أن لن نجمع عظامه ؟ » . ثم تقذف هذا الحسبان الكاذب بما يقتلعه من جذوره : « بلى قادرين على أن نسوى بنانه » . قادرين على جمع عظامه ، واعادة تركيبه الى آخر ما يبلغ به حد الكمال الخلقى، وهو تسوية البنان والأطراف ..

ثم تبرز السورة شأنا آخر ــ كان له أثره فى انكار البعث والقيامة ــ غير ظن العجز عن الاعادة : تغلبت على الانسان شهوته ، واندفع بها فى لذته فنسى البعث بل وأنكره ليفك نفسه من قيوده فيكون حرا طليقا فيما يشتهى : « بل يريد الانسان ليفجر أمامه » . فلم ينكره نزولا عن برهان ، وانما هو محاولة التفلت من سلطان التكاليف والمؤاخذة،ولقد أبعد فى ذلك حتى سأل سؤال المستهزئين: « يسأل أيان يوم القيامة » وهنا تصف له الآيات ما سينزل به من الأهوال التى تحيط به ، والتى لا يجد له منها ملجأ ينقذه ويخلصه : « فاذا برق البصر.وخسف القمر وجمع الشمس والقمر يقول الانسان يومئذ : أين المفر ؟ .. كلا لا وزر ، الى ربك يومئذ المستقر » ..

وهنا تقدم له صحف أعماله ونياته فينبأ بما قدم وأخر ، بل وتكون نفسه بصيرة وشاهدة عليه ، وعندئذ يحاول أن يخلص

من صحيفته ، فيعجل بقراءتها لتطوى ويفرغ من حسابه وموقف خزيه ، فيعلن بأن الأمر فى ذلك ليس اليه وانما هو الى الله صاحب الشأن فى عرض الأعمال واظهار السيئات : « لا تحرك به لسانك لتعجل به ان علينا جمعه وقرآنه ، فاذا قرأناه فاتبع قرآنه » .

ثم تبرز السورة من نفس الانسان داعيا آخر لانكار البعث ، وهو محبة الدنيا التى تطمس عليه جانب الآخرة : « بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة » ..

وهنا تعرض السورة ان الناس فى هذا الموقف أبرار وفجار : « وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة » ثم تحذرهم الركون الى الدنيا وتصور لهم أهوال الاحتضار حينما تبلغ الروح الحلقوم ، ويعجز الطبيب والكاهن . ويرى مشهد الفراق : « والتفت الساق بالساق الى ربك يومئذ المساق » . وهنا يسمع أسباب أحزانه « فلا صدق ولا صلى ، ولكن كذب وتولى ، ثم ذهب الى أهله يتمطى » يختال ويتكبر .

الجزاء مقتضى الحكمة والعدل

ثم تختم السورة بتقرير القدرة على الاعادة ، وانها من نوع القدرة على الخلق الأول ، وان الاعادة لتحديد المسئوليات ، والجزاء على الأعمال أثر من آثار العناية بالانسان وتكريمه ، وانه لا يمكن — وقد أكرمه الله ونفحه بالعقل والشرائع — أن يتركه سدى وهملا كالعجماوات دون حساب ولا جزاء : رسم له شرائعه ، ووهبه قوى العمل ، وقوى التسلط على ما خلق ، وأنشأه عاملا قويا مفكرا من مويهة قذرة ، ثم أحاطه بعناية بما ينعم به فى حياته ويحفظ له ذكراه من بعد مماته ، فلا بد له اذن من يوم يسأل فيه عن النعيم ، ويتجلى فيه بالنسبة للمحسن والمسيء فضل الله وعدله ، وهو ذلكم اليوم الموعود : « أيحسب الانسان أن يترك سدى ، الم يك نطفة من منى يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ، أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى » .

آمنت بالله العظيم ..

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبيه الكريم سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ..



فهرس

مطابع الشروق

بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٣١٥٢٠١ - برقياً: داشروق - تلكس: SHOROK 20175 LE

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني - هاتف: ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقياً: شروق - تلكس: 93091 SHROK UN